من صفات أهل الكتاب السيئة
وعقاب الكافرين وثواب المؤمنين
الآيات : ٤٤ - ٥٧

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

نصيباً : حظّاً[1] .

يخاطب ربّ العزّة حبيبه المصطفى ﷺ ، ويصحّ أن يتّجه الخطاب وراء ذلك إلى كلّ مسلمٍ لله ربّ العالمين ، ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، ألم تعلم عن اليهود الذين آتاهم الله تعالى التّوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام والتي فيها نعتك أيّها النّبيّ الكريم والرّسول العظيم بأنّهم يشترون الضّلالة بالهدى ويؤثرون عذاب الله تعالى على المغفرة حينما يجحدون نعمتك ويكفرون بك ويناصبونك العداء . بل إنّهم يفعلون ما هو أعجب من ذلك حينما يريدون من المسلمين الذين آمنوا بك وصدّقوك واتّبعوك أن يكونوا مثلهم بأن يضلّوا سبيل الحقّ ويسلكوا سبيل الباطل .

والآية الكريمة التّالية مبيّنة أبعاد هذا المعنى موضّحة مرماه .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى أعلم منكم بأعدائكم الذين يريدون لكم أيّها المؤمنون أن تضلّوا السّبيل وتهجروا الصّراط المستقيم فعليكم أن تثقوا بعلم الله تعالى المحيط وأن تأخذوا حذركم من اليهود الذي لا يقصّرون في إرادة العنت بكم وإلحاق الخبال بكم . وكفى بالله وليًّا لمن تولّى جلّ وعلا أموره ورعى شئونه وامتثل هو لأوامره ونواهيه تعالى ، وكفى بالله نصيراً لمن استنصر الله تعالى ووهبه جلّ وعلا النّصر على عدوّ الله تعالى وعدوّه : ﴿ وما النّصر إلّا من عند الله ﴾[2] حسبكم أيّها المؤمنون بالله تعالى وليًّا يتولّى مصالحكم وحسبكم بالله نصيراً لكم على عدوّكم . وإنّما تكون ولاية الله تعالى ويتمّ نصره لمن أطاعه جلّ وعلا وأطاع رسوله الكريم ﷺ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٥/٧٤ .

(٢) سورة الأنفال ١٠ .

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

الكلم : جماع كلمة[1] .

مواضعه : أماكنه ووجوهه[2] .

يحرّفون الكلم عن مواضعه : أي يتأوّلونه على غير تأويله ويفسّرونه بغير مراد الله عزّ وجلّ قصداً منهم وافتراءً[3] .

ويقولون سمعنا وعصينا : ويقولون سمعنا يا محمّد قولك وعصينا أمرك[4] .

واسمع غير مسمع : ويقولون له اسمع منّا غير مسمع كقول القائل للرّجل يسبّه اسمع لا أسمعك الله[5] عن ابن عبّاس : واسمع غير مسمع قال : يقولون لك واسمع لا سمعت[6] وهذا هو المعنى السّيّىء الذي يريده اليهود . وللقول : غير مسمع معنىً حسن لا يريده اليهود ، أي غير مُسْمَعٍ شيئاً تكرهه واسمع غير صاغرٍ ولا ذليل[7] .

وراعنا : عن ابن عبّاس : راعنا ، أي أرعنا سمعك . وعن ابن عبّاس : يا أيّها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا[8] قال : كانوا يقولون للنّبيّ ﷺ أرعنا سمعك ، وإنّما راعنا كقولك عاطنا[9] وهذا هو المعنى الحسن الذي يريده المسلمون ولا يريده اليهود . وهنالك معنىً سيّىء يريده اليهود بسبّهم النّبيّ ﷺ من الرّعونة وهم بقولهم راعنا يوهمون أنّهم يقولون راعنا سمعك[10] إنّ المعنى الحسن للقول : راعنا : استمع إلينا وأصْغِ إلى ما نقول وفرّغ سمعك لكلامنا[11] والتفت إلينا[12] وإنّ المعنى السّيّىء ، الذي يريده اليهود من قولهم : رَعُنَ الرّجل

(١) تفسير الطّبريّ ٥/٧٥ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٥/٧٥ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٠٧ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٥/٧٥ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٥/٧٦ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٥/٧٦ .
(٧) انصر تفسير الطّبريّ ١/٣٧٥ .
(٨) الآية ١٠٤ من سورة البقرة .
(٩) تفسير ابن كثير ١/١٤٨ .
(١٠) انظر تفسير ابن كثير ١/٥٠٧ وص ١٤٨ .
(١١) انظر لسان العرب « رعى » .
(١٢) تفسير القرطبيّ ص ٤٤٧ .

يرعُنُ رَعَناً ، فهو أرعن ، أي أهوج ، والمرأة الرّعناء[1] والرّعونة : الحُمْق والاسترخاء[2] ويقول أبو حيّان[3] : « وقيل : كانت لليهود كلمة عبرانيّة أو سريانيّة يتسابّون بها وهي راعينا ، فلمّا سمعوا بقول المؤمنين راعنا اقترضوه وخاطبوا بها رسول الله ﷺ وهم يعنون تلك المسبّة ، فنهي المؤمنون عنها وأمروا بما هو في معناها » .

ليًّا بألسنتهم : يعني تحريكاً منهم بألسنتهم بتحريف منهم لمعناه إلى المكروه من معنييه واستخفافاً منهم بحقّ النّبيّ ﷺ[4] .

وانظرنا : أقبل علينا وانظر إلينا[5] .

وأقوم : وأعدل وأصوب في القول وهو من الاستقامة من قول الله : أقوم قيلاً ، بمعنى وأصوب قيلاً[6] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ من اليهود قوماً يحرّفون الكلم عن مواضعه ويصرفون الكلام عن وجهه ويلوون معناه ويؤوّلونه بغير ما يؤدّي إليه ويُفْضي ويئول . ومن هذا الكلام الذي صرفوا معناه وفسّروه بأهوائهم نعت المصطفى ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة . واستمراراً من القوم على الخطأ وتمادياً في الغيّ هم يقولون للنّبيّ ﷺ الذي يرتّل على مسامعهم آي الذّكر الحكيم الذي أوحى الله تعالى إليه ويدعوهم إلى صراط العزيز الحميد ويجيبونه في وقاحةٍ متناهية : سمعنا يا محمّد قولك وعصينا أمرك . وفي مقابل سماعهم منه هم يطلبون منه في المقابل أن يسمع منهم ، ويتّخذون من هذا الطّلب الذي يبدو وجيهاً للوهلة الأولى ذريعةً للحن القول الذي عرفوا به وصرفهم الكلام عن وجهه ومعناه أو صرف المعنى المألوف للكلام وجلب غير المألوف من المعنى ، امتداداً لتحريفهم الكلام ، كلام الله عن مواضعه ، فكيف لا يحرّفون كلامهم عن مواضعه . إنّهم يجيء على لسانهم القول : « واسمع غير مُسْمَعٍ وراعنا » وتقرّر الآية الكريمة حقيقة نوايا القوم بهذا الكلام الذي لظاهره معنىً حسن غير مقصود ومعنىً سيّىء مقصود : ﴿ ليًّا بألسنتهم وطعناً في الدّين ﴾ إنّ القول على لسانهم : « واسمع » معقولٌ في مقابل القول السّابق : ﴿ ويقولون سمعنا ﴾ ويصحّ أن نتوجّس من القوم خيفةً حينما نتبيّن أنّهم أفسدوا سماعهم بإعلان العصيان : ﴿ ويقولون سمعنا وعصينا ﴾ وهذا التّوجّس خيفةً يتأكّد بما جرى على لسانهم من كلام ذي معنيين

---

(١) معجم مقاييس اللّغة « رعن » ٤٠٨/٢ .
(٢) لسان العرب « رعن » .
(٣) البحر المحيط ٣٣٩/١ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٧٦/٥ .
(٥) تفسير القرطبيّ ص ٤٥٠ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٧٧/٥ .

اثنين أرادوا سيّئهما وليس حسنهما . وقد اتّخذوا من القول : « واسمع » مطيّةً للحن القول بعد ذلك المتعلّق بالسّماع أيضاً : ﴿ واسمع غير مسمع ﴾ والقول : « غير مُسْمَع » له معنيان حسن غير مقصود ، أي غَيْرَ مُسْمَعٍ شيئاً من القول يسوؤك سماعه ويؤذيك ، إكباراً لك وإجلالاً . ومعنىً سيّىءٌ مقصود ، أي غير مُسْمَع شيئاً من القول مطلقاً دليلاً على سبق المنيّة إليك وتعجيل الموت بك . وإنّ لحن القول هذا المتعلّق بالسّماع : « غير مسمع » والذي اتّخذ من السّماع قبله : « واسمع » توطئةً وتمهيداً ، كان هو الآخر توطئةً وتمهيداً لنوع آخر من لحن القول وذلك في القول : « وراعنا » الذي له هو الآخر معنيان حسن غير مقصود وسيّىء مقصود . أمّا المعنى الحسن غير المقصود فهو : استمع إلينا والتفت وأصغ إلى ما نقول وفرّغ سمعك لكلامنا . وأما المعنى السّيّء المقصود فهو أنّهم يحرّفون الكلم عن مواضعه ويصرفون اللّفظ عن المعنى القريب المتبادر إلى الذّهن وإلى كلّ نفسٍ صافيةٍ وقلبٍ سليم ، وينحرفون إلى المعنى البعيد الذي يحرص على الوصول إليه أولئك الخبثاء عليهم لعائن الله وعلى من سلك طريق الخبث على شاكلتهم . والمقصود الدّعاء على المصطفى ﷺ – كبرت كلمةً تخرج من أفواههم – بالخبال وسوء الحال : « وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنّهم كانوا إذا سلّموا إنّما يقولون : السّام عليكم ، والسّام هو الموت ، ولهذا أمرنا أن نردّ عليهم بـ : وعليكم . وإنّما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا »[1] .

ويبيّن ربّ العزّة أنّهم يتعمّدون تلك المعاني السّيّئة ويتوسّلون إلى ذلك عن طريق اللّيّ بألسنتهم للكلام عن مألوف النّطق به ، وللكلام عن مألوف معناه ، وللمعنى عن مألوف لفظه ، ويقصدون من وراء ذلك إلى الطّعن في دين الإسلام الذي رضيه الله تعالى لعباده عن طريق إيذاء رسول الهدى محمّد بن عبد الله ﷺ بلحن القول الذي يتقنونه إتقان المنافقين إخوانهم له ، وبسيّىء الفعل الذي لا يتورّعون عن الإقدام عليه وإن كان قتله عليه الصّلاة والسّلام .

وتضع الآية الكريمة للقوم البديل من القول فيما لو عادوا إلى جادّة الصّواب . إنّهم قالوا من قبل : ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ وإنّ البديل الصّحيح : ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ وإنّهم قالوا من قبل : ﴿ واسمع غير مسمع وراعنا ﴾ وإنّ البديل الصّحيح : ﴿ واسمع وانظرنا ﴾ ومن

---

(١) تفسير ابن كثير ١٤٨/١ .

البيّن أنّ هذه الجملة المرغوب فيها : « وانظرنا » تقابل القول غير المرغوب فيه على لسان اليهود : « غير مسمع وراعنا » ومعنى « وانظرنا » أقبل علينا وانظر إلينا . إنّ هذا البديل الصّحيح لو جرى على لسانهم لكان خيراً لهم في الدّنيا والآخرة ولكان أعدل وأصوب وأقرب إلى الاستقامة ولكن لعنهم الله بكفرهم وطردهم من رحمته بسبب نفاقهم فلا يؤمنون إلّا قليلاً من الذين هداهم الله تعالى فاهتدوا وزادهم هدىً وتقوى ، كعبد الله بن سلام رضي الله عنه .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا
مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا
عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ
ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

من قبل أن نطمس وجوهاً : قال بعضهم : طمسه إيّاها محوه آثارها حتّى تصير كالأقفاء . وقال آخرون : معنى ذلك أن نطمس أبصارها فنصيّرها عمياء ، ولكنّ الخبر خرج بذكر الوجه والمراد به بصره فنردّها على أدبارها فنجعل أبصارها من قبل أقفائها[1] .

أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السَّبت : أو نلعنهم ونجعلهم قردة كما لعنّا أصحاب السَّبت وأخزينا اليهود الذين اعتدوا في يوم السَّبت[2] والذين أشار إليهم قوله تعالى في سورة الأعراف[3] : ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السَّبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لا يَسْبِتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ وقوله تعالى[4] : ﴿ فلما عَتَوْا عمّا نُهوا عنه قلنا لهم كونوا قِرَدةً خاسئين ﴾ والقرية هي أَيْلة على بحر القُلْزُم بين مدين والطّور[5] .وكان اعتداؤهم في السَّبت أنّ الله كان حرّم عليهم السَّبت فكانوا يصطادون فيه السّمك إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ، يقول : إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم الذي نهوا فيه عن العمل شرّعاً ، يقول : شارعةً ظاهرةً على الماء من كلّ طريق وناحية كشوارع الطّرق[6] لقد كانوا يحبسون السَّمك يوم السَّبت حتّى إذا غربت

(١) تفسير الطّبريّ ٧٧/٥ .
(٢) انظر تفسير الطّبريّ ٧٧/٥ .
(٣) الآية ١٦٣ .
(٤) الآية ١٦٦ .
(٥) انظر تفسير الطّبريّ ٦٢/٩ ومعجم البلدان أيلة .
(٦) تفسير الطّبريّ ٦٢/٩ .

الشّمس من يوم الأحد اصطادوه[1] .

تخاطب الآية الكريمة أهل الكتاب عموماً ، اليهود خصوصاً ، منبّهةً لهم إلى نعمةٍ من أكبر نعم الله تعالى عليهم وهي إرسال الكتاب السّماويّ إلى نبيّهم ، التّوراة إلى موسى عليه السّلام والإنجيل إلى عيسى عليه السّلام ، فهم أهل الكتاب السّماويّ الذي آتاهم الله تعالى إيّاه مَنًّا منه وفضلاً ، فعليهم أن يقوموا بما يجب عليهم في المقابل من شكرٍ لله تعالى ، ويتجلّى هذا الشّكر في إيمانهم بما نزّل الله تعالى من قرآنٍ مجيد مصدّقٍ لما معهم من كتابٍ سماويّ . إنّهم إن لم يفعلوا ذلك فسينزل الله سبحانه وتعالى بهم نقمته ومن ذلك أن يطمس وجوه القوم بالكلّيّة فلا يبقى لوجه الواحد منهم عينان ولا حاجب ولا أنف ولا أيّ شيءٍ بل إنّها ستكون ملساء كالأقفاء . ووراء ذلك تردّ هذه الأوجه أدباراً وتردّ الأدبار أوجهاً ، ويا للطّمس من منظرٍ كئيب فكيف إذا أردف الطّمس بردّ الوجه المطموس قفا ، ومن ذلك أيضاً أن يلعنهم الله سبحانه وتعالى ويخزيهم ويمسخهم قردةً وخنازير[2] كما فعل جلّ وعلا بأصحاب السّبت المعتدين بالصّيد فيه بأن جعل منهم القردة والخنازير .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ أمر الله مفعولٌ دائماً وأبداً . وانظر إلى لفظة الأمر . إنّ كلّ شيءٍ في الوجود رهينٌ لقول الفعّال لما يريد : « كن فيكون » لا معقّب لحكمه جلّ وعلا ولا رادّ لقضائه .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

فقد افترى إثماً عظيماً : فقد اختلق إثماً عظيماً . وإنّما جعله الله تعالى ذكره مفترياً لأنّه قال زوراً وإفكاً بجحوده وحدانيّة الله وإقراره بأنّ لله شريكاً من خلقه وصاحبةً أو ولداً ، فقائل ذلك مفترٍ وكذلك كلّ كاذبٍ فهو مفترٍ في كذبه مختلقٌ له[3] .

تحدّثت الآيات الكريمات السّابقات واللّاحقات عن أهل الكتاب ، والمعروف أنّ رسل الله تعالى إنّما بعثوا برسالة التّوحيد وبرسالة الإسلام ، والمعروف أن كلًّا من اليهود والنّصارى قد انحرفوا عن جادّة الصّواب ومن الآيات الكريمات التي أشارت إلى ذلك قوله تعالى في سورة التّوبة[4] : ﴿ وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النّصارى المسيح ابن الله .

(١) انظر تفسير الطّبريّ ٩/٦٥ .
(٢) انظر تفسير الطّبريّ ٩/٦٣ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٥/٨٠ .
(٤) الآيات ٣٠ - ٣٣ .

ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنّى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابن مريم وما أمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عمّا يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلّا أن يُتِمّ نورَهُ ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودينِ الحقِّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون ﴾ إنّ أمثال هذه الملابسات ضربٌ من العلاقة بين الآية الكريمة وبين ما سبقها ولحق بها من آياتٍ كريمات . ووراء ذلك تشمل الآية الكريمة كلّ أنواع الشّرك وضروب أصحابه وفي مقدّمتهم مشركو العرب .

والآية الكريمة تقرّر أنّ الذّنب الوحيد الذي لا يغفره الله تعالى هو أن يشرك معه جلّ وعلا سواه ، وما وراء هذا الذّنب العظيم من ذنوب ، إن شاء الله تعالى غفر وإن شاء عذّب ، لا يسأل جلّ وعلا عمّا يفعل وهم يسألون . كما تقرّر الآية الكريمة أنّ من يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً وذنباً كبيراً وإفكاً خطيراً إذ صرف العبادة عن الله سبحانه وتعالى الذي له وحده جلّ وعلا الخلق والأمر إلى الآلهة المزعومة المخلوقة والتي لا تخلق شيئاً ولا تملك ضرّاً ولا نفعاً ولا تملك موتاً ولا حياةً ولا نشوراً .

ثبت في الصّحيحين عن ابن مسعودٍ أنّه قال : قلت يا رسول الله : أيّ الذّنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك . وذكر تمام الحديث . وعن عمران بن حصين أنّ رسول الله ﷺ قال : أخبركم بأكبر الكبائر : الإشراك بالله . ثمّ قرأ : ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً . وعقوق الوالدين ثمّ قرأ : أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير[1] . وقد أبانت هذه الآية أنّ كلّ صاحب كبيرةٍ ففي مشيئة الله ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله[2] وتنبيهاً إلى جميل عفوه جلّ وعلا وجليل غفرانه وواسع رحمته قال عزّ من قائل[3] : ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إنّ الله يغفر الذّنوب جميعاً ، إنّه هو الغفور الرّحيم ﴾ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾

ولا يظلمون فتيلاً : قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وغير واحدٍ

(١) تفسير ابن كثير ١/٥١١ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٥/٨٠ .
(٣) سورة الزّمر ص ٥٣ .

من السلف هو ما يكون في شقّ النّواة[1] قال أبو جعفر : وأصل الفتيل المفتول ، صرف من مفعول إلى فعيل كما قيل : صريع ودهين من مصروع ومدهون[2] .

تخاطب الآية الكريمة أساساً المصطفى ﷺ : ألم تر يا محمّد إلى اليهود والنّصارى الذي يزكّون أنفسهم حيث قالوا[3] : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ ﴿ وقالوا لن يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيّهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[4] إنّ زعمهم مردودٌ عليهم ، وادّعاءهم كاذبٌ لا أساس له من دينٍ ولا عقل ، فينبغي ألّا يلتفت إلى شيءٍ ممّا يقولون وليضرب عنه الذكر صفحاً ، بل الله سبحانه وتعالى هو الذي يزكّي من يشاء تزكيته وتطهيره فيوفّقه للإيمان وعمل الصّالحات ويتفضّل جلّ وعلا بقبول تلك الأعمال الصّالحة التي يراد بها وجهه الكريم ، والله سبحانه وتعالى هو وحده الذي يخذل من يشاء خذلانه فلا يزكّيه ولا يطهّره . والله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً من عباده وزن الفتيل في شقّ النّواة ولا وزن الذّرّة وهي أصغر النّمل بنقص حسنة أو زيادة سيّئة ، وإنّ واجب العباد كلّ العباد أن يمتثلوا أمر الله سبحانه وتعالى في مثل قوله عزّ من قائل[5] : ﴿ فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى ﴾ .

في صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن احثوا في وجوه المدّاحين التّراب . وفي الصّحيحين من طريق خالد الحذّاء عن عبد الرّحمن بن أبي بكرة عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل فقال : ويحك قطعت عنق صاحبك ثمّ قال : إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليَقُلْ أحسبه كذا ولا يزكّي على الله أحداً[6] وروى الإمام أحمد عن معبد الجهنّي قال : كان معاوية فلمّا كان يحدّث عن النّبيّ ﷺ قال : وكان قلّما يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدّث بهنّ عن النّبيّ ﷺ يقول : من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدّين ، وإنّ هذا المال حلو خضر ، فمن يأخذه بحقّه يبارك له فيه . وإيّاكم والتّمادح فإنّه الذّبح[7] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٥١٢/١ وتفسير الطّبريّ ٨٢/٥ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٨٣/٥ .
(٣) سورة المائدة ١٨ .
(٤) سورة البقرة ١١١ .
(٥) سورة النّجم ٣٢ .
(٦) تفسير ابن كثير ٥١١/١ .
(٧) تفسير ابن كثير ٥١٢/١ .

انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، ووراء ذلك يصحّ أن يتّجه الخطاب إلى كلّ واحدٍ من أفراد الأمّة المحمّديّة : انظر يا محمّد متعجّباً كيف يفتري اليهود والنّصارى على الله الكذب بقولهم إنّهم أبناء الله وأحباؤه ولن يدخل الجنّة إلّا من كان يهوديًّا أو نصرانيًّا وكفى بهذا الكذب على الله تعالى والافتراء عليه جلّ وعلا إثماً مبيناً وذنباً عظيماً يستحقّون عليه شديد العقاب وأليم العذاب .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

سبب النزول :

روى ابن إسحاق عن ابن عبّاس قال : كان الذين حزّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة حييّ بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وأبو رافع والرّبيع بن أبي الحقيق وأبو عامر ووحوح بن عامر وهوذة بن قيس . فأمّا وحوح وأبو عامر وهوذة فمن بني وائل وكان سائرهم من بني النّضير . فلمّا قدموا على قريشٍ قالوا : هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأُوَل فاسألوهم أدينكم خيرٌ أم دين محمّد . فسألوهم فقالوا : بل دينكم خيرٌ من دينه وأنتم أهدى منه وممّن اتّبعه فأنزل الله فيهم : ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت إلى قوله : وآتيناهم ملكاً عظيماً[1] .

يؤمنون بالجبت والطّاغوت : قال عمر رضي الله عنه : الجبت السّحر . والطّاغوت : الشّيطان[2] وهكذا روي عن ابن عبّاس وأبي العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير والشّعبيّ والحسن والضّحّاك والسّدّيّ[3] وقال الإمام مالك : الطّاغوت هو كلّ ما يعبد من دون الله عزّ وجلّ[4] .

على غرار ابتداء آيتين كريمتين سابقتين بالقول : « ألم تر » : ﴿ ألم تر إلى الذين

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨٥/٥ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٨٣/٥ وصحيح البخاريّ ٥٧/٦ .
(٣) تفسير ابن كثير ٥١٢/١ .
(٤) تفسير ابن كثير ٥١٢/١ .

أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضّلالة ﴾ ﴿ ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم ﴾ تبدأ الآية الكريمة . وإذا كان الخطاب يتّجه أساساً إلى المصطفى ﷺ فإنّه وراء ذلك يصحّ أن يتّجه إلى كلّ واحدٍ من المسلمين . والمعنى : ألم تر يا محمّد إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، وحظًّا من التّوراة ، وتعجب لحال هذا الفريق من اليهود الذين يؤمنون بالسّحر والشّيطان الرّجيم الذي سوّل لهم وأملى لهم وأطاعوه ، وقد قالوا لكفّار مكّة المشركين مع الله تعالى سواه عابدي الأوثان وقد سألهم كفّار مكّة : أيّنا أهدى سبيلاً وعلى الصّراط المستقيم : نحن سكّان مكّة وجيران الحرم وسدنة البيت وخدّام الحجيج أم محمّد تارك مكّة وهاجر الحرم وقاطع الرّحم ومفارق دين قومه ؟ قالوا لكفّار مكّة المشركين : أنتم أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بالله تعالى وعبدوه جلّ وعلا وحده لا شريك له واتّبعوا محمّداً ﷺ واهتدوا بالنّور الذي أنزل معه !

إنّ العجب لا يكاد ينتهي من هذا الفريق من اليهود ناكثي العهود والمواثيق خائني أمانة العلم الكاذبين على الله تعالى وعلى رسوله الكريم ﷺ وعلى المؤمنين ، بل الكاذبين على أنفسهم ، لأنّهم يعلمون علم اليقين أنّهم يعلنون خلاف ما يسرّون ويقولون عكس ما يعتقدون .

وتشير الآية الكريمة التّالية إلى الجزاء الذي يستحقّه أولئك الخائنون النّاقضون للعهود والمواثيق .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

إنّ أولئك الذين خانوا الأمانة ونقضوا الميثاق وكفروا بالله ورسوله وحادّوا الله ورسوله وتعمّدوا الكذب والادّعاء بأنّ المشركين أهدى من الموحّدين أتباع محمّد ﷺ استحقّوا أن يلعنهم الله تعالى وأن يطردهم من رحمته جلّ وعلا وأن يخزيهم . وتقرّر الآية الكريمة أنّ من يلعنه الله تعالى ويطرده من رحمته فلن تجد له أيّها الإنسان نصيراً يدفع عنه عذاب الله تعالى أو يصرفه عنه .

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾

نقيراً : النّقير نُكتةٌ في ظهر النّواة[١] ونقطةٌ في ظهر النّواة[٢] ونُقْرةٌ في ظهر النّواة[٣] وحينما نتحوّل إلى الأصل اللّغويّ الذي اشتقّت منه اللّفظة نصادف في معجم مقاييس اللّغة[٤] مثلاً ما يلي : « النّون والقاف والرّاء أصل صحيح يدلّ على قرع شيءٍ حتّى تُهْزَمَ فيه هَزْمة ، ثمّ يتوسّع فيه . منه منقار الطّائر ، لأنّه يَنْقُر به الشّيء حتّى يؤثّر فيه .... ومن الباب نَقَّرْت عن الأمر حتّى علمته ، وذلك بَحْثُك عنه ، كأنّ عِلْمَكَ به نقرٌ فيه . ونَقَرْت الرّجل : عِبْتَه ، كأنّك قرعتَ بشيءٍ فأثّرت فيه .... والنُّقرة : موضعٌ يبقى فيه ماء السّيل ، كأنّه قد نُقِر نَقْراً فَهُزِم ... والنّقير : نُكتةٌ في ظهر النّواة » ممّا سبق يتبيّن أنّ النّقير عبارةٌ عن تلك النُّقرة الصّغيرة التي توجد في وسط ظهر النّواة . وسبق أن جاء قوله تعالى : ﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ والفتيل عبارةٌ عمّا هو مفتولٌ في شقّ النّواة . وكلٌّ من النّقير والفتيل يضرب به المثل في القلّة والصّغر خاصّةً وأنّ النّواة ذاتها قليلة الشّأن في نظر النّاس ومن هنا قيل عن النّوى إنّه منبوذ أي مطروحٌ ومُلْقىً . وعلى الرّغم من الحديث عن بعض المتعلّقات الدّقيقة بالنّخلة إلّا أنّ هذه الأمور معروفةٌ لكلّ العرب . وبخاصّةٍ المدنيّون المشهورة بيئتهم بزراعة الأنواع الجيّدة والكثيرة من التّمور .

والآية الكريمة تقرّر أنّ أهل الكتاب الذين يتعمّدون الكذب ويعلنون أنّ المشركين أهدى من الموحّدين سبيلاً ليس لهم نصيبٌ من الملك وحظّ في كلّ هذا الوجود إنّما الفضل كلّه بيد الله مالك الملك . ولو فرض أنّ أهل الكتاب كان لهم في هذا الوجود حظٌّ من المُلْك والسّلطة فإنّهم لن يؤتوا النّاس شيئاً ولن يعطوا الذين آمنوا بقيادة المصطفى ﷺ أهون الأشياء شأناً وأقلّها قيمة ، وهي التي رمز لها بالنّقير ، والنُّقرة التي في وسط ظهر النّواة ، وهي من الصّغر وتفاهة الشّأن بمكان . وقد جاء في هذا الفريق من النّاس قوله تعالى في سورة الإسراء[٥] : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربّي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتوراً ﴾ .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تنفي أن يكون لأهل الكتاب أدنى نصيبٍ من الملك في هذا الوجود ، وإنّ الآية الكريمة التّالية تسير في الاتّجاه ذاته . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة

---

(١) معجم مقاييس اللّغة « نقر » ٤٦٩/٥ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٨٦/٥ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٨٧/٥ .
(٤) معجم مقاييس اللّغة « نقر » ٤٦٨ .
(٥) الآية ١٠٠ .

تستعمل لفظة النّاس وليس المؤمنين ممّا هو دليلٌ على تأصّل عيب الشّحّ فيهم حينما يمنعون النّاس حقوقهم . وإنّ الآية الكريمة التّالية تستعمل لفظة النّاس كذلك .

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

أم يحسدون النّاس : أم يحسدون محمّداً ﷺ وأصحابه[1] .

على ما آتاهم الله من فضله : الفضل هو النّبوّة[2] .

آل إبراهيم : أهل إبراهيم وأتباعه على دينه[3] .

الكتاب : جنس الكتب . يعني كتاب الله الذي أوحاه إليهم وذلك كصحف إبراهيم وموسى والزّبور وسائر ما آتاهم من الكتب[4] .

والحكمة : النّبوّة[5] أو ما أوحى الله تعالى إليهم ممّا لم يكن كتاباً مقروءاً[6] من السُّنن[7] .

وآتيناهم ملكاً عظيماً : عن ابن عبّاس وآتيناهم ملكاً عظيماً يعني ملك سليمان[8] .

أمْ إنّ الباعث لهؤلاء اليهود على تضليل مشركي مكّة بزعمهم أنّ المشركين ، أهدى من الذين آمنوا بقيادة المصطفى ﷺ سبيلاً ، هو داء الحسد ، بسبب ما أعطى الله سبحانه وتعالى محمّداً ﷺ النّبوّة من فضله ، وأعطى العرب المبعوث فيهم شرف بعث المصطفى ﷺ فيهم ، وإيثارهم ابتداءً بحمل الرّسالة وأداء الأمانة . بما أنّ الباعث للقوم على الكذب هو داء الحسد بنصّ القرآن الكريم فمعنى هذا أنّ أم التي يفهم منها الاستفهام يفهم منها كذلك معنى بل التي تفيد الإضراب . فالباعث إذن لليهود على الكذب هو الحسد الذي لا يطمع من صاحبه في مودّةٍ للمحسود ولا إنصاف . وقد جاء في حسد أهل الكتاب عموماً للمؤمنين على نعمة الإسلام ونعمة الإيمان قوله عزّ من قائل[9] : ﴿ ودَّ كثيرٌ

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨٨/٥ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٨٨/٥ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٨٩/٥ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٨٩/٥ .
(٥) الجلالين .
(٦) تفسير الطّبريّ ٨٩/٥ .
(٧) تفسير ابن كثير ٥١٣/١ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٨٩/٥ .
(٩) سورة البقرة ١٠٩ .

من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقُّ فاعفوا واصفحوا حتّى يأتي الله بأمره . إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ وكان اليهود بخاصّة عن طريق ما لديهم من كتب ، وبخاصّة التّوراة التي فيها نعت المصطفى ﷺ ، على علمٍ بقرب زمان بعثة النّبيّ الخاتم ، وكانوا يتوقّعون أن يكون من بني إسرائيل على غرار كلّ الأنبياء من سلالة إبراهيم عليه السّلام وإسحاق عليه السّلام . وشاءت إرادة الله تعالى أن يكون خاتم النّبيّين محمّد بن عبد الله ﷺ النّبيّ الوحيد من ذرّيّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام ، أي من العرب وليس من اليهود ، ولهذا حسد اليهود النّبيّ العربيّ والأمّة العربيّة المبعوث فيها . وإلى ذلك أشار قوله تعالى[1] : ﴿ ولمّا جاءهم كتابٌ من عند الله مصدّقٌ لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتَرَوْا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضبٍ على غضب . وللكافرين عذابٌ مهين ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ ولمّا جاءهم رسولٌ من عند الله مصدّقٌ لما معهم نبذ فريقٌ من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون ﴾ .

وفي معرض الإنكار على اليهود حسدهم للمصطفى ﷺ وللعرب يجيء القول : ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ﴾ إنّه لا معنى لحسد اليهود محمّداً ﷺ والعرب فليس محمّدٌ بدعاً من الرّسل وليس العرب بدعاً من الأمم فقد آتى الله سبحانه وتعالى من فضله الكثير من النّبيّين والكثير من الأمم ، وقد آتى الله سبحانه وتعالى آل إبراهيم عليه السّلام وأتباعه على دينه ، ومنهم اليهود أتباع موسى عليه السّلام ، جنس الكتب ومنها صحف إبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم الصّلاة والسّلام ، وإذا كان الكتاب السّماويّ لا يوحى إلّا لنبيّ ، وكان في ذكر الكتاب الموحى به ذكرٌ ضمنيّ للنّبوّة ، يكون معنى الحكمة السُّنّة وما أوحى الله سبحانه وتعالى إلى أولئك النّبيّين ممّا لم يكن كتاباً مقروءاً . ومن هؤلاء النّبيّين من جمع الله تعالى له بين النّبوّة والملك ، ومن هؤلاء يوسف عليه السّلام ، وقد جاء في سورة يوسف[3] على لسانه عليه الصّلاة والسّلام قوله تعالى : ﴿ ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث ﴾ ويرجح لدينا أنّ يوسف عليه السّلام أصبح ملك مصر ، وقد جاء لفظ العرش في حديث الآية الكريمة عن يوسف عليه السّلام . قال تعالى[4] : ﴿ ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّداً ﴾ وكان

(١) سورة البقرة ٨٩ ، ٩٠ .
(٢) سورة البقرة ١٠١ .
(٣) الآية ١٠١ .
(٤) سورة يوسف ١٠٠ .

السّجود بقصد التّكريم والتّحيّة جائزاً آنذاك . ومن هؤلاء النّبيّين من آتاه الله سبحانه وتعالى الملك العظيم ، كسليمان عليه السّلام الذي جاء على لسانه في سورة ص[1] قوله تعالى : ﴿ قال ربّ اغفر لي وهبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنّك أنت الوهّاب ﴾ .

إنّ محمّداً ﷺ والعرب المبعوث فيهم ليسوا بدعاً من النّبيّين والأمم فلماذا يحسدهم اليهود على ما آتاهم الله تعالى من فضله الذي سبق وأن آتى الله سبحانه وتعالى منه اليهود من ذي قبل ثمّ ثبت أنّهم ليسوا أهلاً لحمل أيّ رسالةٍ جديدة بسبب طاقتهم الكليلة وهمّتهم العليلة ودخائلهم المريضة . وعلى الرّغم من هذا الفضل الذي خصّ الله تعالى به بني إسرائيل من ذي قبل وآتاهم الله تعالى إيّاه فإنّهم قد انقسموا فريقين ، فريقاً اعترف به وشكر لله سبحانه وتعالى عليه وآمن ، وفريقاً كفر . وإلى هذين الفريقين أشارت الآية الكريمة التّالية .

فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

إنّ من هؤلاء اليهود من آمن بهذا الإيتاء وذلك الإنعام وامتثل لأوامر الله تعالى وأذعن لمشيئته واعترف بنعمته وأشاد بفضله وقام بما يجب عليه من شكرٍ لله تعالى ، ومن أقوى أدلّة الشّكر لله تعالى تصديق النّبيّ المبعوث من الله تعالى . وإنّ من هؤلاء اليهود من كفر بذلك الإيتاء وجحد ذلك الفضل وأنكر تلك النّعمة وأعرض عن النّبيّ المبعوث من الله تعالى ، بل تجاوز مرحلة الكفر إلى مرحلة الصّدّ عن سبيل الله تعالى . وبهذا يتبيّن أنّ القول : « صدّ عنه » يشير إلى مرحلتي الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى . أمّا مرحلة الكفر فتفهم من ذكر الإيمان بشأن الفريق الأوّل : ﴿ فمنهم من آمن به ﴾ وكأنّ المنتظر أن يقال بعد ذلك : ومنهم من كفر . ولكنّ التّعبير يتجاوز هذه المرحلة المعروفة ضمناً ، ويثبت المرحلة التّالية مرحلة الصّدّ عن سبيل الله تعالى التي لا تكون إلّا بعد مرحلة الكفر والعياذ بالله .

وكفى بجهنّم سعيراً ، وكفى بنار جهنّم تسعر عليهم وتوقد عليهم جزاء كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى .

وإذا كان لليهود ولبني إسرائيل هذه المواقف السّيّئة من الذين هم من جنسهم ، أي من بني إسرائيل ، فهل يستغرب منهم هذا الموقف من الذين ليسوا من جنسهم ، من النّبيّ العربيّ القرشيّ الهاشميّ الذي كان فضل الله تعالى عليه عظيماً ، ومن العرب الذين شملهم

---

(١) الآية ٣٥ .

الله تعالى بفضله فنالتهم بركة المصطفى ﷺ . لا يستغرب هذا الموقف السّيّىء من القوم الذين اعتادوا هذا الموقف من بني جنسهم فكيف مع غير بني جنسهم ، وإنّ هذا الفريق من النّاس وقود النّار يوم القيامة المجموع له النّاس المشهود .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾

سوف نصليهم ناراً : سوف ندخلهم[1] وسوف ننضجهم في نار يصلَوْن فيها ، أي يشوون فيها[2] .

كلّما نضجت جلودهم : كلّما انشوت بها جلودهم فاحترقت[3] .

تبيّن الآية الكريمة عذاب الله تعالى الشّديد يوم القيامة وعقابه الأليم الذي ينتظر الكافرين عموماً ، وفيهم كافرو أهل الكتاب الذين جحدوا نبوّة محمّد ﷺ ، وأنكروا أن يكون القرآن الكريم كلام ربّ العالمين ، وأشركوا مع الله تعالى في العبادة سواه بأنّ الله سبحانه وتعالى سوف يدخلهم جهنّم ويصليهم ناراً وقودها النّاس والحجارة . وكلّما احترقت جلود القوم ونضجت بدّلهم الله سبحانه وتعالى جلوداً غيرها . والثّابت علميًّا أنّ جلد الإنسان أكثر أجزاء الجسد إحساساً بالألم ، وها هي ذي الآية الكريمة تنبّه على هذه الحقيقة العلميّة حينما تتحدّث عن الجلود بالذّات . وتقرّر الآية الكريمة الغاية من تبديل الجلود : ليذوقوا العذاب . إنّكم كفرتم في الحياة الدّنيا وها هي ذي جلودكم تحترق المرّة تلو المرّة كي تذوقوا عذاب كفركم بآيات الله تعالى البيّنات ، وفي مقدّمتها الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد . كما تقرّر الآية الكريمة في تذييلها ما يتمشّى مع فحوى الآية الكريمة من عزّة وحكمة . ﴿ إنّ الله كان عزيزاً حكيماً ﴾ إنّه جلّ وعلا العزيز في ملكه الحكيم في صنعه .

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير الطّبريّ ٥/٩٠ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٥/٩٠ .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ
لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

وندخلهم ظلًّا ظليلاً : الظّلّ أعمّ من الفيء فإنّه يقال : ظلّ اللّيل وظلّ الجنّة . ويقال لكلّ موضع لم تصل إليه الشّمس ظِلّ ولا يقال الفيء إلّا لما زال عنه الشّمس . ويعبّر بالظّلّ عن العزّة والمَنَعة وعن الرّفاهة . قال تعالى : إنّ المتّقين في ظلال . أي في عزّةٍ ومناع . وقال : أكلها دائمٌ وظلّها . هم وأزواجهم في ظلال . وظلّ ظليل : فائض . وقوله : وندخلهم ظلًّا ظليلاً : كناية عن غضارة العيش[1] .

تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن عذاب الذين كفروا الأليم في النّار التي وقودها النّاس والحجارة والتي أعدّت للكافرين . وعلى عادة القرآن الكريم المتشابه والمثاني ، بمعنى الذي يثنّى فيها الحديث عن الموضوع الواحد ويكرّر ، والذي يثنّى فيه الحديث عن المعنى المقابل لسابقه المغاير له والمخالف ، تحدّثت الآية الكريمة التّالية عن ثواب الذين آمنوا في الجنّة التي فيها مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر والتي أعدّت للمتّقين .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات سيدخلهم ربّهم بإيمانهم جنّات النّعيم . ويلاحظ أنّ التّعبير هنا بالسّين : « سندخلهم » وكأنّ حرف السّين هنا يعكس فرح المؤمنين السّعداء بالنّعيم المقيم الذي يستعجلونه ولا يكادون ينتظرونه . بينما جاء بشأن الذين كفروا « سوف » : ﴿ سوف نصليهم ناراً ﴾ وكأنّ التّنبيه على المستقبل هنا مع التّسويف أو التّأجيل يحذّر الذين كفروا السّادرين في غيّهم من أن يظنّوا إمهال الله تعالى لهم إمهالاً ويغريهم باهتبال الفسحة في الأجل والتّأجيل في العقاب والعذاب وذلك بالعودة إلى الله تعالى سريعاً والتّوبة والإيمان وعمل الصّالحات .

وتوصف تلك الجنّات بأهمّ مقوّماتها وهي أنواع الأنهار التي تجري من تحتها وتتدفّق في أثنائها ، وهؤلاء المؤمنون الذين تفضّل الله تعالى بأن أدخلهم الجنّة هم خالدون فيها

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني « ظلل » ص ٣١٤ .

أبداً ، ولهم فيها أزواجٌ مطهّرةٌ من كلِّ قذىً في الدّنيا وأذى . ويتفضّل الله سبحانه وتعالى بأن يدخلهم في الجنّة ظلًّا ظليلاً . والمعروف أنّ من كمال النّعيم في جنّات الدّنيا أن تكون الظّلالة وارفة ، والشّمس محتجبة وراء الغمام . إنّ ما استقرّ في نفوس العرب بشأن جنّات الدّنيا تقرّره الآية الكريمة وتثبته لجنّات الآخرة . ووراء ذلك فالظلّ في الجنّة ظليل ، فلا حرّ من ناحيةٍ ولا قُرّ ، ثمّ إنّ هنالك الهناء الدّائم والنّعيم المقيم وغضارة العيش الهنيء المريء . إنّ من مقوّمات ظلّ الجنّة الظّليل الخلود والنّعيم الكامل الخالص . أكرمنا الله سبحانه وتعالى بالجنّة وجعلنا من أهلها وفي ظلّها الظّليل إنّه سميع مجيب .

الأمر بأداء الأمانة
والحكم بما أنزل الله وطاعة الرسول
وتبيين ثواب الطائعين
الآيات: ٥٨ - ٧٠

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

سبب النّزول :

روى محمّد بن إسحاق في غزوة الفتح أنّ رسول الله ﷺ لمّا نزل بمكّة واطمأنّ النّاس خرج حتّى جاء إلى البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الرّكن بمحجنٍ في يده . فلمّا قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامةً من عيدان فكسرها بيده ثمّ طرحها ، ثمّ وقف على باب الكعبة وقد استكنّ له النّاس في المسجد . قال ابن إسحاق : فحدّثني بعض أهل العلم أنّ رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال : لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، الا كلّ مأثُرةٍ أو دمٍ أو مال يُدَّعى فهو تحت قدميّ هاتين إلّا سدانة البيت وسقاية الحاج . وذكر بقيّة الحديث في خطبة النّبيّ ﷺ يومئذٍ إلى أن قال : ثمّ جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه عليّ بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السّقاية صلّى الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعي له فقال له : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم وفاءٍ وبرّ[1] وقال عمر بن الخطّاب : لمّا خرج رسول الله ﷺ من الكعبة وهو يتلو هذه الآية : إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها . فداه أبي وأمّي ما سمعته يتلوها قبل ذلك[2] .

إنّ الله نِعِمّاً يعظكم به : إن الله نعم الشّيء يعظكم به ونعمت العظة يعظكم بها في أمره إيّاكم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وأن تحكموا بين النّاس **بالعدل**[3] .

وحكى النّحويّون في نِعْم أربع لغات : نَعِمَ الرّجل زيدٌ ، هذا الأصل . ونِعِمَ الرّجل ، بكسر النّون لكسر العين . ونَعْمَ الرّجل ، بفتح النّون وسكون العين ، والأصل نَعِمَ حذفت الكسرة لأنّها ثقيلة . ونِعْمَ الرّجل ، وهذا أفصح اللّغات ، والأصل فيها نَعِمَ . وهي تقع في كلّ مدح ، فخفّفت وقلبت كسرة العين على النّون وأسكنت العين[4] وبشأن

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥١٥ ، وانظر سيرة ابن هشام ٤/٣١ وهنالك : اليومُ يومُ برٍّ ووفاء .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥١٦ ، وتفسير الطّبريّ ٥/٩٢ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٥/٩٣ .

(٤) تفسير القرطبيّ ١١٤٢ .

نِعِمّا ثمّة تقديران : أحدهما أن يكون جاء به على لغة من يقول : نِعِم . والتقدير الآخر أن يكون على اللغّة الجيّدة ، فيكون الأصل نِعْمَ ، ثمّ كسرت العين لالتقاء السّاكنين[1] وقد أعربوا ما هنا تمييزاً ، وقدّروه بشيئاً[2] ونعم فعل جعل للمدح .

عرفنا المناسبة التي أنزلت فيها الآية الكريمة ، ونودّ أن نقتبس كلماتٍ من كتاب الطّريق إلى المدينة لأبي الحسن النّدويّ من فصلٍ بعنوان : « في مهد الإسلام » يقول[3] : « إنّي لأرى سيّد قريش يطوف بالبيت وحده وهو موضع سخريةٍ واستهزاء ، وتمتد إليه يدٌ بالإهانة والإيذاء ، وهو مقبلٌ على عمله خاشعٌ متواضع ، ثمّ أراه بعدما ينتهي من طوافه يحاول الدّخول في البيت فيأبى عثمان بن طلحة سادن الكعبة وينال منه ، فيحلم ويقول : يا عثمان ، لعلّك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت فيقول : لقد هلكت قريش يومئذٍ وذلّت ، فقال : بل عمرت وعزّت يومئذ » وقد عرفنا أنّ المصطفى ﷺ أعاد المفتاح إلى عثمان بن طلحة قائلاً : هاك مفتاحك يا عثمان . اليوم يوم برٍّ ووفاء . ومع أنّ نزول الآية الكريمة في سببٍ خاصّ فإنّ العبرة كما هو معروف بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب . فالمسلمون لله ربّ العالمين مأمورون بأن يؤدّوا الأمانات إلى أهلها ، وهم مأمورون بأداء حقّ الله تعالى أوّلاً وحقّ رسوله الكريم ﷺ وذلك بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وطاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم ﷺ . قال تعالى[4] : ﴿ إنّا عرضنا الأمانة على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . إنّه كان ظلوماً جهولاً ﴾ . وكلّ مسلمٍ مأمورٌ بأن يؤدّي ما اؤتمن عليه . في حديث الحسن عن سمرة أنّ رسول الله ﷺ قال : أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك . رواه الإمام أحمد وأهل السّنن[5] وفي الصّحيحين أنّ رسول الله ﷺ قال : لتؤدّنّ الحقوق إلى أهلها حتّى يقتصّ للشّاة الجمّاء من القرناء[6] .

والمسلمون ، وبخاصّة الحكّام وأرباب السّلطة ، مأمورون إذا حكموا بين النّاس أن يحكموا بالعدل . وقد خاطب ربّ العزّة حبيبه المصطفى ﷺ إن جاءه اليهود ليحكم بينهم بقوله جلّ وعلا[7] : ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط . إنّ الله يحبّ المقسطين ﴾

---

(١) تفسير القرطبيّ ١١٤٢ .
(٢) البحر المحيط ٣٢٤/٢ .
(٣) الطّريق إلى المدينة ص ٧١ والحديث هنا عن المصطفى ﷺ .
(٤) سورة الأحزاب ٧٢ .
(٥) تفسير ابن كثير ٥١٥/١ .
(٦) تفسير ابن كثير ٥١٥/١ .
(٧) سورة المائدة ٤٢ .

وفي الحديث : إنّ الله مع الحاكم ما لم يجر ، فإذا جار وكله إلى نفسه . وفي الأثر : عدل يوم كعبادة أربعين سنة[1] .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله نعم الشّيء يعظكم به ونعمت العظة يعظكم بها في أمره إيّاكم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وأن تحكموا بين النّاس بالعدل . وهذا دليلٌ على قيمة كلٍّ من الأمانة والعدل في الإسلام وثواب مؤدّي الأمانة والحاكم العادل الجزيل من الله تعالى .

وتقرّر الآية الكريمة في تذييلها أنّ الله سبحانه وتعالى سميعٌ بصير ، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء ، ولا يخفى عليه من أدّى الأمانة ومن ضيّع ، ومن حكم بالقسط ومن ظلم . إنّ لكلٍّ ثوابه وعقابه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

وأولي الأمر منكم : الأمراء والولاة لصحّة الأخبار عن رسول الله ﷺ بالأمر بطاعة الأئمّة والولاة فيما كان طاعةً وللمسلمين مصلحة[2] والفقهاء والعلماء[3] قال تعالى : لولا ينهاهم الرّبّانيّون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السّحت . وقال تعالى : فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون[4] .

فإن تنازعتم في شيءٍ : فإن اختلفتم أيّها المؤمنون في شيءٍ من أمر دينكم أنتم فيما بينكم أو أنتم وولاة أمركم فاشتجرتم فيه[5] .

فردّوه إلى الله والرّسول : فارتادوا معرفة حكم ذلك من كتاب الله فإن لم تجدوا إلى علم ذلك في كتاب الله سبيلاً فارتادوا معرفة ذلك أيضاً من عند الرّسول إن كان حيّاً ، وإن كان ميّتاً فمن سنّته[6] .

وأحسن تأويلاً : أي وأحسن عاقبةً ومآلاً[7] وأحمد موئلاً ومغبّةً وأجمل عاقبة[8] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٥١٦/١ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٩٥/٥ وصحيح البخاريّ ٥٧/٦ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٩٤/٥ وتفسير ابن كثير ٥١٨/١ .
(٤) انظر تفسير ابن كثير ٥١٨/١ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٩٥/٥ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٩٥/٥ .
(٧) تفسير ابن كثير ٥١٨/١ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٩٦/٥ .

سبب النّزول وأحاديث في الطّاعة :

روى البخاريّ عن ابن عبّاس أنّ الآية الكريمة نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس ابن عديّ إذ بعثه رسول الله ﷺ في سريّة وهكذا أخرجه بقيّة الجماعة إلّا ابن ماجة[1]

وروى الإمام أحمد عن عليّ قال : بعث رسول الله ﷺ سريّة واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار ، فلمّا خرجوا وجد عليهم في شيء قال : فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا بلى . قال : فاجمعوا لي حطباً ، ثمّ دعا بنارٍ فأضرمها فيه ، ثمّ قال : عزمت عليكم لتدخلنّها . قال : فقال لهم شابّ منهم : إنّما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النّار فلا تعجلوا حتّى تلقوا رسول الله ﷺ . فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها . قال : فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه فقال لهم : لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً . إنّما الطّاعة في المعروف . أخرجاه في الصّحيحين[2] .

وروى أبو داود عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال : السّمع والطّاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . وأخرجه البخاريّ ومسلم[3] .

وأخرج البخاريّ ومسلم عن عبادة بن الصّامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السّمع والطّاعة ، في منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرةٍ علينا ، وألّا ننازع الأمر أهله . قال : إلّا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان[4] .

وروى البخاريّ عن أنسٍ أنّ رسول الله ﷺ قال : اسمعوا وأطيعوا ، وإن أمّر عليكم عبدٌ حبشيّ كأنّ رأسه زبيبة[5] .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشيًّا مجدوع الأطراف[6] وروى مسلم عن أمّ الحصين أنّها سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجّة الوداع يقول : ولو استعمل عليكم عبدٌ يقودكم بكتاب الله اسمعوا له وأطيعوا[7] .

وأخرج البخاريّ ومسلم عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥١٦ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٥١٧ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/٥١٧ .
(٤) تفسير ابن كثير ١/٥١٧ .
(٥) تفسير ابن كثير ١/٥١٧ .
(٦) تفسير ابن كثير ١/٥١٧ .
(٧) تفسير ابن كثير ١/٥١٧ .

ﷺ : من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر ، فإنّه ليس أحدٌ يفارق الجماعة شبراً فيموت إلّا مات ميتةً جاهليّة[1] .

وروى مسلم عن ابن عمر أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول : من خلع يداً من طاعةٍ لقي الله يوم القيامة لا حجّة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهليّة[2] .

وفي الحديث الصّحيح المتّفق على صحّته عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنّه قال : من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصاني[3] .

وروى الإمام أحمد عن عمران بن حصين عن النّبيّ ﷺ قال : لا طاعة في معصية الله[4] .

تخاطب الآية الكريمة الذين آمنوا وتأمرهم بأن يطيعوا الله ويطيعوا الرّسول وأولي الأمر منهم . والحقيقة أنّنا بصدد مظهرٍ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم وبصدد تبيينٍ في الصّياغة بأنّ طاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم مطلقة ، أمّا طاعة أولي الأمر فمقيّدة . وقد تبيّن من الأحاديث النّبويّة السّابقة الذّكر التي استكثرنا منها عمداً أنّ طاعة أولي الأمر إنّما تكون حينما يأمرون بطاعة لا بمعصية . فلننظر إلى صياغة الجزئيّة الكريمة : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم ﴾ إنّه فيما يتّصل بالأمر بطاعة الله تعالى جاء الأمر الصّريح : « أطيعوا الله » وفيما يتّصل بالأمر بطاعة الرّسول ﷺ جاء الأمر الصّريح كذلك بتكرار جملة أطيعوا : « وأطيعوا الرّسول » وذلك معناه أنّ طاعة الله مطلقة وطاعة الرّسول الكريم كذلك مطلقة .

فإذا تحوّلنا إلى أولي الأمر تبيّنّا أنّ جملة أطيعوا لا تأتي بشأن أولي الأمر « وأولي الأمر منكم » ممّا يفهم معه أنّ طاعة أولي الأمر مقيّدة وليست مطلقة وأنّ طاعة أولي الأمر داخلةٌ في طاعة الله سبحانه وتعالى وطاعة رسوله الكريم ﷺ . فإن أطاع أولو الأمر الله تعالى وأطاعوا رسوله الكريم ﷺ فيما يأمرون به وينهون عنه أطيعوا . ويفهم من عدم مجيء جملة أطيعوا للمرّة الثّالثة أنّ أولي الأمر مأمورون بأن يطيعوا الله تعالى ويطيعوا الرّسول . وحينما يفعلون ذلك تكون أوامرهم ونواهيهم مستمدّةً من كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥١٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٥١٧ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/٥١٨ .
(٤) تفسير ابن كثير ١/٥١٨ .

وهؤلاء هم أولو الأمر الذي يجب طاعتهم لأنّهم في الحقيقة إنّما يأمرون وينهون بما أمر الله به وأمر به رسوله الكريم ﷺ ونهى الله عنه ونهى عنه رسوله الكريم .

فإذا اختلف المسلمون فيما بينهم بشأن أمرٍ من الأمور ، أو اختلفوا مع الولاة فإنّ المقياس الفاصل الذي يحتكم إليه كتاب الله تعالى وسنّة رسوله الكريم ﷺ : ﴿ فإن تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى الله والرّسول ﴾ ومن الذي يحتكم إلى كتاب الله تعالى وإلى الرّسول ﷺ في حياته ، وإلى سنّته المطهّرة بعد مماته ؟ إنّ الذي يحتكم بنصّ الآية الكريمة هو من كان يؤمن بالله تعالى ربًّا ويؤمن باليوم الآخر يوم الحساب والجزاء ، الثّواب والعقاب : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ ويفهم من ذلك أنّ من لا يحتكم إلى كتاب الله تعالى وإلى السّنّة النّبويّة المطهّرة لا يؤمن حقيقةً بالله تعالى واليوم الآخر .

وحينما يحتكم المسلمون في كلّ ما شجر بينهم إلى كتاب الله تعالى وإلى سنّة رسوله الكريم يتحقّق لهم بإذن الله تعالى بنصّ الآية الكريمة الخير في الدّنيا والآخرة وحسن المآل والعاقبة في الأولى والآخرة ، وهو ما يصحّ أن يعبّر عنه بالحياة الطّيّبة التي عبّرت عنها آية سورة النّحل[1] قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ
ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾

الطّاغوت : الباطل[2]

ويريد الشّيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً : ويريد الشّيطان أن يجور بهم عن سبيل الحقّ والهدى جوراً شديداً[3] .

---

(١) الآية ٩٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥١٩/١ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩٦/٥ .

سبب النّزول :

يقول ابن **كثير**[1] : « ذكر في سبب نزول هذه الآية أنّها في رجل من الأنصار ورجلٍ من اليهود تخاصما . فجعل اليهوديّ يقول : بيني وبينك محمّد . وذاك يقول : بيني وبينك كعب بن الأشرف (اليهوديّ) وقيل في جماعةٍ من المنافقين ممّن أظهروا الإسلام أرادوا أن يتحاكموا إلى حكّام الجاهليّة . وقيل غير ذلك . والآية أعمّ من ذلك كلّه فإنّها ذامّةٌ لمن عدل عن الكتاب والسّنّة ، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطّاغوت هنا » .

على الرّغم ممّا ذكر في سبب النّزول فالذي يبدو أنّها عامّةٌ في كلّ الذين يبغون حكم الجاهليّة ويتعمّدون التّنكر لحكم الله تعالى : ﴿ ومن أحسن من الله حكماً لقومٍ يوقنون ﴾[2] .

والآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ في القول : ﴿ ألم تر ﴾ الذي يفيد شدّ الانتباه إلى هذا الأمر العجيب الذي ينبغي أن يستأثر بكلّ اهتمام والذي ينبغي أن يعجب منه كلّ واقفٍ عليه عالم به . أمّا هذا الأمر العجيب فهو أولئك الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أنزل إليك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم من قرآنٍ كريم وسنّةٍ مطهّرة ، وبما أنزل من قبلك من وحيٍ سماويّ ، على موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام وعلى سائر النّبيّين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ، والذين إذا شجر بينهم وبين غيرهم خلافٌ ، هم يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت ويتخاصموا إلى الباطل بينما هم على علمٍ بأنّهم قد أمروا أن يكفروا بكلّ باطل وبكلّ حكم سوى حكم الله تعالى وحكم رسوله الكريم ﷺ ، وهم على علمٍ كذلك بأنّهم حينما يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت ، لا يريدون حكم الله تعالى ولا حكم رسوله ﷺ ، خاصّةً وأنّه عليه الصّلاة والسّلام لا زال بين أظهرهم حيًّا يرزق وينزل عليه الوحي من السّماء تباعاً .

إنّ القوم إنّما أرادوا أن يتحاكموا إلى الطّاغوت لأنّهم كانوا أداةً طيّعةً في يد الشّيطان الرّجيم يغريهم بهجر الصّراط المستقيم ، صراط الله تعالى ، وها هو ذا الشّيطان الرّجيم يغريهم بهجر الصّراط المستقيم ، صراط الله تعالى ، ويسهّل لهم سلوك سبيله الذي يؤدّي بتابعيه

---

(١) تفسير ابن كثير ٥١٩/١ وانظر تفسير الطّبريّ والآراء المتعدّدة في سبب النّزول .

(٢) سورة المائدة ٥٠ .

حتماً إلى مهاوي الرّدى ، وها هم أولاء الذين زيّن لهم الشّيطان أعمالهم يعرضون عن حكم الله تعالى ويريدون أن يتحاكموا إلى كلّ باطل ، ويريد الشّيطان أن يزيدهم ضلالاً إلى ضلال وعمىً إلى عمىً وذلك ما عبّرت عنه الآية الكريمة بالضّلال البعيد .

إنّ هذا الفريق الضّال هو الذي أشارت إلى موقفه وإلى موقف الفريق الآخر المقابل من المؤمنين المتّقين فيما يتعلّق بأحكام الله تعالى ، الآيات الكريمات من سورة النّور[1] : ﴿ ويقولون آمنّا بالله وبالرّسول وأطعنا ثمّ يتولّى فريقٌ منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريقٌ منهم معرضون . وإن يكن لهم الحقّ يأتوا إليه مذعنين . أفي قلوبهم مرضٌ أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله . بل أولئك هم الظّالمون . إنّما كان قولَ المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويَتَّقْهِ فأولئك هم الفائزون ﴾ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾

من البيّن أنّ التّعبير في الآية الكريمة كان يصحّ أن يكون في هذه الصّورة : وإذا قيل لهم ... رأيتم يصدّون ... ولكن الآية الكريمة تذكر المنافقين بصريح اللّفظ : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرّسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً ﴾ ممّا يفهم معه دور المنافقين البارز في هذه المسألة وخطورة المنافقين على المجتمع المسلم لأنّهم بإعلانهم الإيمان وإبطانهم الكفر يندسّون في أعماق المجتمع المسلم وينالون خيره ويأمنون على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، وحينما لا يتمشّى أيّ حكمٍ من أحكام الإسلام مع أيّ مصلحةٍ شخصيّةٍ للمنافقين فإنّهم يرفضون بشراسةٍ ذلك الحكم ويستأسدون في الدّفاع عن مصالحهم الذّاتيّة . وهم إذا كانوا قد استطاعوا أن يخفوا حقائق دخائلهم ، فقد بيّن ربّ العزّة أنّهم يُعْرَفون في لحن القول وفيما تزلّ به ألسنتهم ممّا يعتبر تعبيراً أميناً ودقيقاً عن حقائق دخائلهم . وممّا يلحق بلحن القول الذي يعرف به المنافقون الإعراض عمّا أنزل الله تعالى وبخاصّةٍ في مجال الأحكام ، وبصفةٍ أخصّ حينما يعلمون أنّ أحكام الله تعالى في غير صالحهم ، والصّدُّ عن رسول الله ﷺ صدوداً حينما يُدْعَوْن إليه عليه الصّلاة والسّلام

---

(١) الآيات ٤٧ – ٥٢ .

ليحكم بينهم بحكم الله تعالى الموحى به إلى رسوله الكريم ﷺ . وإنّ ذكر المصدر « صدوداً » الذي يفيد التّوكيد يعمّق من إعراض المنافقين عن الله تعالى وصدّهم عن المصطفى ﷺ .

فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

فكيف بهؤلاء المنافقين ، الذين يصدّون عنك أيّها الرّسول الكريم صدوداً كرهاً منهم لحكم الله تعالى وحكم رسوله ، إذا أصابتهم مصيبةٌ بما قدّمت أيديهم ، وحلّت بهم نقمةٌ ونزلت بهم من الله عقوبةٌ بسبب إيثارهم حكم الطّاغوت ؟ هل يصدّون عنك أيّها الرّسول الكريم صدوداً أم أنّهم يجيئون إليك لائذين مسرعين ؟ إنّهم يجيئون إليك أيّها الرّسول الكريم . وامتداداً لنفاقهم واستمراراً لكيدهم وحرصاً منهم على مصالحهم الشّخصيّة هم لا يتورّعون عن الحلف بالله تعالى كذباً وادّعاءً وفجوراً زاعمين أنّهم بإعراضهم عن حكم الله تعالى وإقبالهم على حكم الطّاغوت وبكرههم لحكم الله تعالى وحبّهم لحكم الطّاغوت لم يكن ذلك منهم بسبب الاعتقاد بصحّة حكومة الطّاغوت ولا بباعث الاعتقاد بعدم صحّة الحكم بما أنزل الله تعالى إنّما أرادوا فقط الإحسان والتّوفيق ، الإحسان والمصانعة والمداراة ، التّوفيق بين الفريقين والصّلح بين الخصمين والتّأليف بين المتنازعين . إنّ لسان حال الآية الكريمة يقول : ﴿ والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون ﴾[1] وهذا ما صرّحت به الآية الكريمة التّالية .

أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

أولئك المنافقون الذين يصدّون عنك أيّها الرّسول الكريم صدوداً ، والذين يحلفون بالله تعالى كذباً ، والذين استحقّوا أن يشار إليهم ، دليلاً على سوء صنيعهم ، وانفراد عملهم بصفات السّوء هذه وبعدهم عن الصّراط المستقيم ، باسم الإشارة الدّالّ على البعد : « أولئك » هم الذين يعلم الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ما في قلوبهم

(١) سورة المنافقون ١ .

ويطّلع على ما في أعماق دخائلهم من نفاق وكذب : « فاكتف به يا محمّد فيهم فإنّه عالمٌ بظواهرهم وبواطنهم »[1] وهو كافيك شرورهم وصارفٌ عنك أذاهم ، وأمّا أنت أيّها الرّسول الكريم فأعرض عنهم ، لا تعنّفهم ولا توبّخهم ولا تقابلهم السّيّئة بالسّيّئة ، وعظهم ، بأن تخوّفهم عقاب الله تعالى الذي أعرضوا عن حكمه وصدّوا عن رسوله ، وأصرّوا على الإعراض والصّدود ، فلعلّ قلوبهم تلين وترقّ ، ولعلّ نفوسهم تصفو وتطهر ، ولعلّ قلوبهم تسلم وتصحّ ، ولعل أرواحهم تسمو وتشفّ . وقل لهم أيّها الرّسول الكريم في شأن أنفسهم ، وفيما بينك وبينهم ، قولاً بليغاً ، يصل منهم إلى أعماق القلوب والنّفوس والصّدور والعقول وأنت الذي خصّك الله تعالى بجوامع الكلم .

والمعروف أنّ المصطفى ﷺ حينما لحق بالرّفيق الأعلى لم يكن قد بقي في المدينة المنوّرة منافق واحد : ﴿ وكان الله على كلّ شيءٍ مقتدراً ﴾[2] .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾

تبيّن الآية الكريمة أنّه ما من رسولٍ يبعثه الله تعالى ، وفيهم محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين إلّا ليطاع بإذن الله تعالى ، ومَنْ هؤلاء الذين يطيعون الرّسول بإذن الله تعالى ؟ الذين شرح الله صدورهم للإسلام ونوّر قلوبهم بالإيمان وأكرمهم بالطّاعة وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان . ومَنْ أولئك الذين لا يطيعون الرّسول ﷺ ؟ الذين انصرفوا فصرف الله تعالى قلوبهم والذين ضلّوا فزادهم الله تعالى ضلالاً إلى ضلالهم وعمي بصيرةٍ إلى عماهم وخذلهم . وهذا هو حال المنافقين الذين تحاكموا إلى الطّاغوت وكرهوا حكم الله تعالى وكَذّبوا وعصوا وصدّوا عن الرّسول الكريم صدوداً .

ولو أنّ أولئك المنافقين ومن لفّ لفّهم من الذين ظلموا أنفسهم ، فتاهوا بها في سبل الضّلال ، وأوردوها موارد الهلاك ، جاءوك أيّها الرّسول تائبين مؤمنين فاستغفروا الله تعالى الذي لا يغفر الذّنوب سواه والذي يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيّئات ، واستغفر لهم

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥١٩ .

(٢) سورة الكهف ٤٥ .

الرّسول الكريم الرّءوف الرّحيم ، لوجدوا الله توّاباً رحيماً ، فقبل توبتهم وغفر ذنبهم وستر عيبهم ، بل وبدّل سيّئاتهم حسنات فلا مبدّل لكلماته جلّ وعلا ولا معقّب لحكمه تعالى .

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

فيما شجر بينهم : الشّين والجيم والرّاء أصلان متداخلان ، يَقْرُب بعضهما من بعض ، ولا يخلو معناهما من تداخل الشّيء بعضه في بعضٍ ، ومن عُلُوٍّ في شيءٍ وارتفاع . فالشّجر معروفٌ ، الواحدة شَجَرة ، وهي لا تخلو من ارتفاعٍ وتداخل أغصان . ووادٍ شَجِر : كثير الشّجر . ويقال : هذه الأرض أَشْجَرُ من غيرها ، أي أكثر شجراً . والشّجَر : كلّ نبتٍ له ساق . قال الله تعالى : والنّجم والشّجر يسجدان . وشَجَرَ بين القوم الأمر ، إذا اختلف أو اختلفوا وتشاجروا فيه . وسمّيت مشاجرةً لتداخل كلامهم بعضه في بعض . واشتجروا : تنازعوا . قال الله سبحانه وتعالى : فلا وربّك لا يؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم[1] .

سبب النّزول :

روى البخاريّ في صحيحه[2] عن عروة بن الزّبير قال : خاصم الزّبير رجلاً من الأنصار في شَرِيجٍ[3] من الحرّة . فقال النّبيّ ﷺ : اسق يا زُبيرُ ثمّ أرسل الماء إلى جارك . فقال الأنصاريّ : أن كان ابن عَمّتك . فتلوّن وجه رسول الله ﷺ ثمّ قال : اسق يا زُبَيْرُ ثمّ احبس الماء حتّى يرجع إلى الجَدْر ، ثمّ أرسل الماء إلى جارك واستوعى[4] النّبيّ ﷺ للزّبير حقّه في صريح الحُكم حين أحفظه الأنصاريّ كان أشار عليهما بأمرٍ لهما فيه سعة . قال الزّبير : فما أَحْسِبُ هذه الآيات إلّا نزلت في ذلك : فلا وربّك لا يؤمنون حتّى

---

(١) معجم مقاييس اللّغة « شجر » ٣/٢٤٦ .

(٢) ٦/٥٨ وانظر تفسير ابن كثير ١/٥٢٠ وتفسير الطّبريّ ٥/١٠٠ .

(٣) الشّرج : مسيل ماءٍ من الحرّة إلى السّهل والجمع شِراج وشُروج . القاموس .

(٤) استوعى النّبيّ ﷺ للزّبير حقّه : أخذ له حقّه كلّه .

يحكّموك فيما شجر بينهم . وروى الإمام أحمد أنّ هذا الانصاريّ قد شهد بدراً[1] وعن سعيد بن المسيّب قال : نزلت في الزّبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة اختصما في ماء فقضى النّبيّ ﷺ أن يسقي الأعلى ثمّ الأسفل[2] .

ومن المعروف أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب وعليه فالآية الكريمة تجعل الرّضا بحكم الرّسول ﷺ والإذعان له والتّسليم التّام مقياس الإيمان بالله تعالى والتّصديق برسوله الكريم ﷺ .

لقد بيّنت الآيات الكريمات السّابقات إعراض المنافقين عن الحكم بما أنزل الله تعالى وصدّهم عن النّبيّ ﷺ وعن حكمه صدوداً وإيثارهم حكم الطّاغوت ، ثمّ هم بعد ذلك يحلفون بالله تعالى كذباً أنّهم ما أرادوا إلّا الإحسان والتّوفيق ، وبالتّالي هم مؤمنون وليسوا منافقين . والآية الكريمة تردّ على هؤلاء كما تردّ على الذي لم يرض بحكم الرّسول ﷺ فيما شجر بينه وبين الزّبير بن العوّام ، وكأنّ الآية الكريمة تقول لأولئك : « فليس الأمر كما يزعمون أنّهم يؤمنون بما أنزل إليك وهم يتحاكمون إلى الطّاغوت ويصدّون عنك إذا دعوا إليك يا محمّد . واستأنف القسم جلّ ذكره فقال : وربّك يا محمّد لا يؤمنون ، أي لا يصدّقون بي وبك وبما أنزل إليك حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم »[3] .

إنّ مقياس الإيمان الحقيقي أن يحكّم المسلمون المصطفى ﷺ في كلّ ما شجر بينهم من خلاف واختلط من أمور واصطدم من مصالح واحتدم من خصام ، وألّا يجدوا في أنفسهم أدنى حرج ممّا قضى المصطفى ﷺ وأقلّ ضيق ، بل أن يكونوا راضين ظاهراً وباطناً بحكمه ﷺ قريرين العين به سواءٌ كان لهم أو عليهم ، مستسلمين كلّ الاستسلام لذلك الحكم والقضاء لأن حكم المصطفى ﷺ بإيحاءٍ من الله تعالى ولأنّ طاعته عليه الصّلاة والسّلام من طاعة الله تعالى .

ولعلّنا تبيّنا المعاني اللّطيفة التي يوحي بها لفظ الرّب الذي يستعمل في مواقف الخصوص ، وفي مناسبات الرّضا وحينما يراد التّنبيه إلى تربية الله تعالى عباده بالنّعم والآلاء ووجوب الشّكر لله تعالى عليها . فكيف إذا لحق بلفظ الرّب اسم الضّمير للمخاطب العائد إلى المصطفى ﷺ . إنّ مثل هذا التّعبير : « فلا وربّك » ومثل هذه الآية الكريمة من أهدافهما تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ وتسليته والتّسرية عنه عليه الصّلاة والسّلام .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٢٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٢١ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٥/١٠٠ .

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾

حينما جاء موسى عليه السّلام لميقات ربّه اتّخذ قومه العجل وعبدوه فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى عليه السّلام أنّ توبة الذين اتّخذوا العجل يجب أن تتمّ بواسطة قتل بعضهم بعضاً . وإلى ذلك أشارت الآيات الكريمات من سورة البقرة[1] قال تعالى : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلةً ثمّ اتّخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثمّ عفونا عنكم من بعد ذلك لعلّكم تشكرون . وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلّكم تهتدون . وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنّكم ظلمتم أنفسكم باتّخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنّه هو التوّاب الرّحيم ﴾ .

وآية سورة النّساء الأولى الكريمة تشير إلى هذا الإصر الذي حمله الله تعالى على بني إسرائيل قوم موسى حينما عبدوا العجل ، وتقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى لو كتب على المنافقين الذين أرادوا أن يتحاكموا إلى الطّاغوت وصدّوا عن المصطفى ﷺ ولو فرض عليهم — شرطاً لقبول توبتهم — أن يقتلوا أنفسهم كما كتب على بني إسرائيل وفرض ، ولو كتب على أولئك المنافقين أن يخرجوا من ديارهم ، لما فعل كلاٌّ من قتل النّفس والهجرة إلّا قليلٌ منهم حبًّا منهم لمتع الحياة الدّنيا المتمثّلة في متاع النّفس وفي عدم مغادرة الوطن . ولننظر في المقابل إلى ما فعله المؤمنون المتّقون المهاجرون الذين استجابوا لله تعالى ولرسوله الكريم فتركوا الوطن وهاجروا في سبيل الله تعالى وخلّفوا وراءهم أموالهم وكلّ ما يملكون . وفوق كلّ ذلك هم جاهدوا في سبيل الله تعالى وقاتلوا وقتلوا .

ولو أنّ أولئك المنافقين فعلوا ما يوعظون به وقد أمَرَ الله تعالى رسوله ، في حقّ المنافقين ، بالقول : ﴿ وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ لكان امتثالُهم لأوامر الله تعالى ونواهيه ووعظ المصطفى ﷺ لهم وتوجيهاته ، خيراً لهم في دينهم ودنياهم ، في أخراهم وأولاهم ، ولكان ذلك الامتثال أشدّ تثبيتاً لإيمانهم وأكثر تصديقاً لاعتقادهم .

---

(١) الآيات ٥١ — ٥٤ .

ولو أنّهم ثبتوا على الإيمان واستمرّوا على التّصديق وقدّموا الدّليل بالعمل الصّالح ، والبرهان بإخلاص العمل لله تعالى ، لآتيناهم من لدنّا أجراً عظيماً ، وأعطيناهم من عندنا يوم القيامة الجنّة التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولهديناهم صراطاً مستقيماً ، بأن سدّدنا خطاهم في الحياة الدّنيا وزدناهم إلى هداهم هدىً كي تتحقّق لهم الحياة الطّيّبة في الأولى والآخرة معاً .

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾

سبب النّزول :

مِنْ أحسن الأحاديث سنداً في سبب النّزول[1] ما جاء عن سعيد بن جبير قال : جاء رجلٌ من الأنصار[2] إلى رسول الله ﷺ وهو محزون فقال له النّبيّ ﷺ : يا فلان : ما لي أراك محزوناً . فقال : يا نبيّ الله ، شيءٌ فكّرت فيه . فقال : ما هو ؟ قال : نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغداً ترفع مع النّبيّين فلا نصل إليك . فلم يردّ عليه النّبيّ ﷺ شيئاً ، فأتاه جبريل بهذه الآية : ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النّبيّين . الآية . فبعث النّبيّ ﷺ فبشّره .

الصّدّيقون : أفاضل أصحاب الأنبياء لمبالغتهم في الصّدق والتّصديق[3] ، حتّى لحقوا بهم[4] والصّدّيق المصدّق قوله بفعله[5] .

والشّهداء ، جمع شهيد ، وهو المقتول في سبيل الله . سمّي بذلك لقيامه بشهادة الحقّ في جنب الله حتّى قتل[6] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٥٢٢/١ وتفسير الطّبريّ ١٠٣/٥ ، ١٠٤ .

(٢) في رواية : هو ثوبان مولى رسول الله ﷺ . انظر أسباب النّزول للنّيسابوريّ ص ١١٠ .

(٣) الجلالين .

(٤) تفسير الطّبريّ ١٠٣/٥ .

(٥) تفسير الطّبريّ ١٠٣/٥ .

(٦) تفسير الطّبريّ ١٠٣/٥ .

والصّالحين ، وهم جمع صالح ، وهو كلّ من صلحت سريرته وعلانيته[1] .

وحسن أولئك رفيقاً : رفقاء في الجنّة . والرّفيق في لفظ الواحد بمعنى الجميع . كما قال الشّاعر :

نصبن الهوى ثمّ ارتمين قلوبنا ... بأسهم أعداءٍ وهنّ صديق

بمعنى وهنّ صدائق[2] .

أمرت الآيات الكريمات السّابقات صراحةً أو ضمناً بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه . وهذه الآية الكريمة تبيّن ثواب الطّائعين . ونودّ بين يدي تفسيرنا للآية الكريمة أن نقف عند لفظة الرّسول وعند لفظة النّبيّين . أمّا لفظة الرّسول فالملاحظ أنّ الآية الكريمة تذكر الرّسول بعد لفظ الجلالة « الله » وتجعل طاعة الرّسول بعد طاعةِ الله تعالى وتبعاً لها . وكأنّ أوّل لفظةٍ متعلّقةٍ بعباد الله تعالى في الآية الكريمة هي لفظة الرّسول تليها لفظة النّبيّين ، وكأنّ الآية الكريمة توحي بأنّ أولى درجات الفضل والإنعام من الله تعالى على عبدٍ من عباده هي درجة الرّسالة تليها درجة النّبوّة ، وكأنّ الآية الكريمة تجعل الرّسل على رأس قائمة المنعم عليهم ، يليهم النّبيّون والصّدّيقون والشّهداء والصّالحون .

وأمّا لفظة النّبيّين فالملاحظ للوهلة الأولى والمتبادر إلى الذّهن من النّظرة الأولى أنّ النّبيّين هم أولى فئات المنعم عليهم في نسق ، وقد عرفنا أنّ المرسلين هم أولى الفئات حقيقةً وبنصّ الآية الكريمة . وإنّ في هذا الإيحاء بكون النّبيّين أولى فئات المنعم عليهم تنبيهاً إلى أمرٍ غايةٍ في الأهمّيّة وهو أنّ درجة النّبوّة هي الطّريق الوحيد المؤدّي إلى درجة الرّسالة أعلى الدّرجات على الإطلاق ، فكلّ رسولٍ نبيّ ، وليس كلّ نبيٍّ رسولاً ، ففي ذكر النّبيّين في بداية الفئات الأربع المنعم عليها في نسق شمولٌ لكلّ المرسلين ضمناً ، لأنّ نعمة الرّسالة لا تكون إلّا بعد نعمة النّبوّة . وهكذا نتبيّن مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في التّنبيه إلى معانيه البعيدة ومراميه القصيّة . والمعروف أنّ آية ختم النّبوّة في سورة الأحزاب[3] نصّت على ختم النّبوّة الباب الوحيد إلى الرّسالة . وحينما يغلق الباب يغلق ما يؤدّي إليه الباب ويفضي ، بطريق الأولى والأحرى . قال تعالى : ﴿ ما كان محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النّبيّين ، وكان الله بكلّ شيءٍ عليماً ﴾ ..

والآية الكريمة تجعل طاعة الرّسول بعد طاعة الله ، وقد عرفنا أنّ في هذا إيحاءً ضمنيًّا

(١) تفسير الطّبريّ ٥/١٠٣ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٥/١٠٣ .

(٣) الآية ٤٠ .

بأنّ أولى فئات المنعم عليهم هم الرّسل . وحينما يتبيّن أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ هو أشرف المرسلين وأفضلهم نفهم أنّ المقصود بالرّسول هنا هو محمّد بن عبد الله ﷺ ، فهو أشرف المرسلين ، وهو خاتم النّبيّين . وبما أنّ في ذكر لفظ النّبيّين ذكراً ضمنيًّا لكلّ المرسلين ولا ينعكس الأمر ، لذا كان الابتداء بذكر النّبيّين في القول : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين ﴾ إنّ من أطاع الله ورسوله كان مع الذين أنعم الله تعالى عليهم ورضي عنهم وأرضاهم . ويلاحظ أنّ هذه الفئات قد رتّبت في طريقة توحي بتدرّجها في الفضل . إنّ أولى الفئات النّبيّون . وهذا أمرٌ طبيعيّ خاصّةً وقد تبيّنّا أنّ المرسلين الذين نبّه عليهم في صدر الآية الكريمة داخلون في النّبيّين . وإنّ الفئة التّالية من فئات المنعم عليهم فئة الصّدّيقين ، وهم الذين بالغوا في الصّدق والتّصديق ، وصدّقت أفعالهم أقوالهم . وليس ببعيدٍ عن أذهاننا المنزلة الرّفيعة الفريدة في الإسلام لأبي بكرٍ الصّدّيق رضي الله تعالى عنه .

وإنّ الفئة التّالية فئة الشّهداء ، وهم الذين قتلوا في سبيل الله تعالى وقاموا بشهادة الحقّ في جنب الله تعالى حتّى استشهدوا .

وإنّ الفئة التّالية والأخيرة فئة الصّالحين . وصفة الصّلاح واسعة المدى حقًّا بحيث إنّها تشمل كلّ النّاس الذين آمنوا وعملوا صالحاً بعد فئات النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء ، ثمّ إنّها تشمل الفئات السّابقة ابتداءً بالمرسلين . وتفسير ذلك أنّ صفة الصّلاح هي القاسم المشترك من الصّفات بين كلّ الفئات المنعم عليها ، وهي صفة ذات مستويات مختلفة وأبعادٍ متفاوتة ، ويتجلّى ذلك بوضوحٍ حينما نقارن بين صفة الصّلاح لدى أيٍّ من أنبياء الله تعالى ولدى أيٍّ من الصّالحين . إنّه لا مجال للمقارنة بين الصّفة في الحالين مع أنّ اللّفظ واحد . ومن الأدلّة على اشتراك الفئات المختلفة من المنعم عليهم في هذه الصّفة هذه الآيات الكريمات . جاء في سورة يوسف عليه السّلام[1] النّبيّ الرّسول قوله تعالى : ﴿ ربّ قد آتيتني من المُلْك وعلّمتني من تأويل الأحاديث فاطرَ السّماوات والأرض أنت وليّي في الدّنيا والآخرة توفّني مسلماً وألحقني بالصّالحين ﴾ وجاء في سورة النّمل[2] على لسان سليمان بن داود عليهما السّلام قوله تعالى : ﴿ فتبسّم ضاحكاً من قولها وقال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصّالحين ﴾

(١) الآية ١٠١ .

(٢) الآية ١٩ .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ كلاً من أولئك المنعم عليهم حَسُن رفيقاً في الجنّة وصاحباً وصديقاً . وهل وراء صحبة المنعم عليهم ، ابتداءً بالمرسلين والنّبيّين وراء ، وهل ثمّة خيرٌ يفضل هذا الخير الذي يدلّ على ما بعده من رضاً لله تعالى ونعيمٍ مقيم ، لا يحول ولا يزول . وإنّ هذا القول : « وحسن أولئك رفيقاً » إذا كان فيه تنبيهٌ على فضل الله تعالى على هؤلاء المطيعين الذين يستمتعون في الجنّة برؤية هؤلاء المنعم عليهم وزيارتهم والحضور معهم وإن كان مقرّهم في الدّرجات العالية بالنّسبة إلى غيرهم[1] فإنّ فيه كذلك ثناءً حسناً على هؤلاء المنعم عليهم .

أحاديث في الطّاعة :

ثبت في صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلميّ أنّه قال : كنت أبيت عند النّبيّ ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي سل . فقلت : يا رسول الله أسأل مرافقتك في الجنّة . فقال : أوغير ذلك ؟ قلت : هو ذاك . قال : فأعنّي على نفسك بكثرة السّجود[2] .

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن مرّة الجهنيّ قال : جاء رجلٌ إلى النّبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله : شهدت ألّا إله إلّا الله وأنّك رسول الله ، وصلّيت الخمس ، وأدّيت زكاة مالي ، وصمت شهر رمضان . فقال رسول الله ﷺ : من مات على ذلك كان مع النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء يوم القيامة هكذا – ونصب إصبعيه – ما لم يعقّ والديه . تفرّد به أحمد[3] .

وروى التّرمذيّ عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : التّاجر الصّدوق الأمين مع النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء[4] .

وأعظم من هذا كلّه بشارةً ما ثبت في الصّحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعةٍ من الصّحابة أنّ رسول الله ﷺ سئل عن الرّجل يحبّ القوم ولمّا يلحق بهم فقال : المرء مع من أحبّ . قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث . وفي

---

(١) الجلالين .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٢٣ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٢٣ .
(٤) تفسير ابن كثير ١/٥٢٣ .

روايةٍ عن أنسٍ أنّه قال : إنّي لأحبّ رسول الله ﷺ وأحبّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما . وأرجو أنّ الله يبعثني معهم وإن لم أعمل كعملهم[1] .

وروى الإمام مالك بن أنس عن أبي سعيد الخدريّ قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ أهل الجنّة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدّرّيّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضلٍ بينهم . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى . والذي نفسي بيده ، رجالٌ آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين . أخرجاه في الصّحيحين من حديث مالك واللّفظ لمسلم ورواه الإمام أحمد[2] .

ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

إنّ صحبة المنعم عليهم في الجنّة هي الفضل الحقيقي من الله تعالى الذي تفضّل فهدى العبد وتفضّل فوفّق العبد لعمل الصّالحات التي أراد بها وجهه جلّ وعلا الكريم ، وتفضّل فقبلها وأثاب عليها . وكفى بالله تعالى عليماً بمن أطاع وبمن عصى ، بمن آمن وبمن كفر ، بمن أخلص العمل لله تعالى ومن لم يخلص . إنّ الله سبحانه وتعالى سيثيب المطيع ويتفضّل عليه ، وسيجازي العاصي ، يعاقبه أو يعفو عنه ، لا معقّب لحكمه جلّ وعلا ولا يسأل عمّا يفعل سبحانه وتعالى .

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٢٣/١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٢٣/١ .

الأمر بالجهاد
واستجابة المؤمنين وإعراض المنافقين
والتذكير بيوم القيامة
الآيات: ٧١ - ٨٧

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾

فانفروا ثبات : جمع ثبة . والثّبة : العصبة[1] والسّريّة[2] والجماعة والفرقة[3] ومن الثُّبة قول زهير :

وقد أغدو على ثبةٍ كرامٍ نشاوى واجدين لما نشاء

وقد تجمع الثّبة على ثبين[4] .

حينما قويت شوكة المؤمنين في المدينة المنوّرة بقيادة المصطفى ﷺ كان في المدينة المنوّرة مؤمنون من المهاجرين والأنصار ومنافقون . وهؤلاء الأخيرون كافرون في الحقيقة ولكنّ الإسلام قهرهم وأذلّ معاطسهم فتظاهروا بالإسلام . وقد تبيّنّا في الآيات الكريمات السّابقات إحدى وسائل المنهج القرآني التّربويّ في القضاء على النّفاق ، ومن هذه الوسائل إعراض المصطفى ﷺ عنهم ووعظهم . والمعروف أنّ سورة براءة فضحت المنافقين وقضت على النّفاق إذ لم يتوفّ المصطفى ﷺ إلّا وكان النّفاق قد انتهى بفضل الله تعالى ومنّه .

وكان في منطقة المدينة المنوّرة بالذّات كافرو يهود . وقد تبيّنّا حديث الآيات الكريمات السّابقات المستفيض عن أساليب اليهود الملتوية قولاً وعملاً ، كما كان في تلك المنطقة وفي كلّ الجزيرة العربيّة كافرون مناوئون للدّعوة إلى صراط الله تعالى العزيز الحميد . وإنّ الآية الكريمة التي نحن بصددها تبيّن كيفيّة تعامل المسلمين مع الكافرين الذين يتربّصون بالإسلام وأهله الدّوائر . إنّها تأمر المؤمنين بأن يأخذوا حذرهم من عدوهم وأن ينهضوا إلى قتاله سرايا متفرّقة ومجتمعين .

إنّ الآية الكريمة تأمر الذين آمنوا بالله تعالى ربًّا وبمحمّد ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً بأن أخذوا حذرهم من عدوّهم وأن يكونوا في كامل اليقظة وأتمّ الاستعداد لمهاجمة عدوّ الله تعالى وعدوّهم وللدّفاع عن بيضة الإسلام . والمعروف أنّ جملة أخذ يرتبط بها دائماً

(١) تفسير الطّبريّ ٥/١٠٤ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٥/١٠٥ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٢٤ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٥/١٠٤ .

وأبداً الحزم وشدّة القبض وعنف الأخذ ، يستوي في ذلك المحسوسات والمعنويات . وكأنّ الحذر من العدوّ شيءٌ محسوس على المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ أن يأخذوه بأيديهم بشدّة ، وأن يعضّوا عليه بالنّواجذ بقوّة وألّا يغفلوا طرفة عين .

ومن مقوّمات الحذر إعداد السّلاح والرّجال الذين يحسنون استعمال السّلاح ساعة الجدّ وإعداد القوّة للقتال بكلّ معاني القوّة .

وإذا كان الحذر من مستلزمات البقاء في المكان والحركة إلى معترك الأقران ، فإنّ الآية الكريمة تأمر المؤمنين أمراً صريحاً بأن ينفروا وأن ينهضوا إلى قتل عدوّ الله تعالى وعدوّهم وأن يقاتلوه في عقر داره ويباغتوه في مستقرّه ، وعليهم ألّا يسمحوا بالعكس مطلقاً فما غُزِي قومٌ في عقر دارهم إلّا ذلّوا ، وعليهم أن يكون اندفاعهم إلى ميادين الشّرف والرّجولة متتابعاً مستمرًّا في هيئة الجماعات المتتابعة والسّرايا المتعاقبة وفي هيئة اندفاع المجتمع كلّه إلى ميدان القتال إذا دعت الحاجة إلى ذلك . ألم ينضو تحت راية أسامة بن زيد التي عقدها المصطفى ﷺ بيده الشّريفة قبيل وفاته عليه الصّلاة والسّلام كلّ المهاجرين وكلّ الأنصار وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ؟ بلى . وبعد وفاته ﷺ أمضى أبو بكر رضي الله تعالى عنه جيش أسامة يرفرف فوقه اللّواء الذي عقده بطل الأبطال ﷺ .

وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ
فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن
لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ
فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

وإنّ منكم : أيّها المؤمنون . يعني من عدادكم وقومكم ومن يتشبّه بكم ويظهر أنّه من أهل دعوتكم وملّتكم وهو منافق[1] .

لمن : دخلت اللّام هنا وفتحت لأنّها اللّام التي تدخل توكيداً مع إنّ كقول القائل : إنّ في الدّار لمن يكرمك[2] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٥/١٠٥ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٥/١٠٥ وانظر معاني القرآن للفرّاء ١/٢٧٥ .

ليبطّئنّ : دخلت اللّام هنا لجواب القسم ، كأنّ معنى الكلام : وإنّ منكم أيّها القوم لمن والله ليبطّئنّ[1] أي يبطّىء من أطاعه منكم عن جهاد عدوّكم وقتالهم إذا أنتم نفرتم إليهم[2] .

ولئن : لام قسم[3] .

كأن : مخفّفة واسمها محذوف أي كأنّه[4] .

تبيّن الآيتان الكريمتان موقف المنافقين من المؤمنين الذي لا يخلو من شماتةٍ إن كانت الدّائرة على المسلمين ومن حسدٍ إن كانت الدّولة للمسلمين . وإنّ كلاً من الآيتين الكريمتين تنصّ على إحدى الحالتين .

إنّ أولى الآيتين الكريمتين تشير إلى أنّ من المؤمنين الذين يتّجه إليهم الحديث منافقين ، يتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر ، فهم باعتبار الظّاهر مؤمنون ، بينما هم في الحقيقة منافقون . وإنّ من أهمّ سمات المنافقين أنّهم بكلّ ما أوتوا من طاقةٍ وقدرةٍ على الدّسّ والاحتيال يحاولون أن يبطّئوا الصّحابة رضوان الله عليهم عن الجهاد في سبيل الله على نحو ما فعل في أُحُد عبد الله بن أبيّ شيخ المنافقين حينما خذل المصطفى ﷺ وانخذل بثلث الجيش وحاول جاهداً أن يغري طائفتين من المؤمنين بأن يتبعوه على غرار المنافقين أمثاله الذين تبعوه ، وكادت الطّائفتان تفشلان لولا أنّ الله سبحانه وتعالى تولّاهما بعنايته ورعايته لأنّهما طائفتان بعيدتان كلّ البعد عن النّفاق . وبهذا يتبيّن أنّ من سمات المنافق الذي يبطّىء الآخرين أن يتباطأ هو نفسه ابتداءً .

فإذا أصابت المؤمنين مصيبةٌ من قتلٍ أو جراحٍ أو هزيمة قال ذلك المنافق الذي يجهل ثواب المجاهدين ويجهل مصلحته الحقيقيّة : قد أنعم الله تعالى عليّ وأكرمني إذ لم أكن شهيداً فيصيبني ما أصابهم من قتل أو جراحٍ أو أسرٍ أو هزيمة . والعجيب أنّ لفظة « شهيداً » هي التي تجيء على لسان المنافق ومع أنّ معناها هنا الحضور فإنّ من متعلّقات ما أصاب المسلمين أنّ الله سبحانه وتعالى قد اتّخذ منهم شهداء ، وقد عرفنا منزلة المنعم عليهم من الشّهداء . إنّ هذا المنافق سعيدٌ إذ لم يكن معهم شهيداً ، بكلٍّ من المعنيين

---

(١) تفسير الطّبريّ ٥/١٠٥ وانظر معاني القرآن للفرّاء ١/٢٧٥ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٥/١٠٥ .

(٣) الجلالين .

(٤) الجلالين .

اللّذين تفيدهما اللّفظة : ﴿ فإنّها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصّدور ﴾[1] .

والآية الكريمة التّالية تبيّن حسد المنافقين للمؤمنين حينما يصيبهم فضلٌ من الله تعالى من نصرٍ أو غنيمةٍ أو فتح . إنّ هذا المنافق الحسود ، حينما يصيب المؤمنين فضلٌ من الله تعالى ليقولنّ ، وكأنّه ليس بينه وبين المؤمنين مودّةٌ ، إن لم تكن بسبب الدّين وقد عرفنا أنّه منافق ، فبسبب الجوار والصّداقة والنّسب والدّم ، يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً في الغنيمة فقط ، وليس في أيّ مضلحةٍ تنال المسلمين . وبهذا يتبيّن أنّ كون المنافقين مع المؤمنين لا يزيد المؤمنين إلّا خبالاً . إنّهم حينما يجدّ الجدّ وحينما يلزم الغرم أبعد الخلق عن القيام بأيّ دورٍ فيه مصلحةٌ للإسلام والمسلمين ، فإذا كان ثمّة غنمٌ ، فإن كان حاضراً كان أسرع المتّجهين للحصول عليه ، وإن كان غير حاضرٍ تمنّى من أعماقه أن لو كان معهم لأنّ الحصول على الغنيمة وعلى المال هو الفوز العظيم في نظره .

إنّ المنافق مذبذبٌ دائماً وأبداً بين الشّماتة بالمسلمين وبين الحسد لهم بنصّ الآيتين الكريمتين .

فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

الذين يشرون الحياة الدّنيا بالآخرة : الذين يبيعون حياتهم الدّنيا بثواب الآخرة وما وعد الله أهل طاعته فيها . وبيعهم إيّاها بها ، إنفاقهم أموالهم في طلب رضا الله كجهاد من أمر بجهاده من أعدائه وأعداء دينه وبذلهم مهجهم له في ذلك[1] .

تأمر الآية الكريمة بالجهاد في سبيل الله تعالى ، وتعيّن الفئة التي يتّجه إليها الحديث ، وتبيّن ثواب المجاهدين في سبيل الله تعالى والذين كتب لهم جلّ وعلا إحدى الحسنيين الشّهادة أو النّصر .

إنّ الآية تأمر بالقتال في سبيل الله تعالى وبالجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحقّ ورفع راية التّوحيد ، راية لا إله إلّا الله محمّد رسول الله . أمّا المأمورون بالقتال في سبيل الله تعالى

---

(١) سورة الحجّ ٤٦ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٠٦/٥ .

فهم المؤمنون المتّقون المجاهدون في سبيل الله تعالى الذين يبيعون حياتهم الدّنيا وأغلى ما يملكون فيها من نفسٍ ونفيس بالآخرة التي هي خيرٌ من الأولى والجنّة التي عرضها كعرض السّماوات والأرض والتي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وتعيّن الآية الكريمة فريقين من المجاهدين يستحقّون من الله تعالى الأجر العظيم والثّواب الجزيل ، أمّا هذان الفريقان فهما اللّذان أكرمهما الله تعالى بإحدى الحسنيين الشّهادة أو النّصر على الأعداء . والله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له هو العليم بذلك الأجر العظيم وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة . يقاتِلون في سبيل الله فَيَقْتُلون ويُقْتَلُون وعداً عليه حقًّا في التّوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله . فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تنصّ على الشّهادة وعلى النّصر ، وتقدّم الشّهادة أو القتل على النّصر أو الظّفر ، وهذا معناه أنّ على المسلمين لله ربّ العالمين أن يعملوا من أجل النّصر والظّفر ، وأنّ على المسلمين كذلك أن تسخو نفوسهم في سبيل الله بأغلى ما يملكون ، أعني أرواحهم التي يبذلونها رخيصةً في سبيل الله تعالى . ومن بذل الرّوح بسخاء بذل كلّ غالٍ ورخيصٍ لأنّ الرّوح المبذولة بسخاء أغلى من كلّ شيء .

ثبت في الصّحيحين : وتكفّل الله للمجاهد في سبيله إن توفّاه أن يدخله الجنّة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجرٍ أو غنيمة[2] .

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

والمستضعفين : عن ابن عبّاس قال : وفي المستضعفين[3].

والولدان : جمع ولد وهم الصبيان[4] .

القرية الظّالم أهلها : مكّة[5] والعرب تسمّي كلّ مدينةٍ قرية[6] .

---

(١) سورة التّوبة ١١١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٢٤/١ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٠٧/٥ .

(٤) تفسير الطّبريّ ١٠٦/٥ .

(٥) تفسير الطّبريّ ١٠٦/٥ ، ١٠٧ .

(٦) تفسير الطّبريّ ١٠٦/٥ .

واجعل لنا من لدنك وليًّا : واجعل لنا يا ربّنا من عندك وليًّا يلي أمرنا بالكفاية ممّا نحن فيه من فتنة أهل الكفر بك[1] .

في هيئة الاستفهام الإنكاريّ وبقصد الحدث على الجهاد في سبيل الله تعالى والمبادرة إليه تسأل الآية الكريمة المؤمنين : وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله تعالى وما شأنكم تنكصون عن الجهاد في سبيله جلّ وعلا ولا مانع لديكم ولا حائل يحول بينكم وبين القتال في سبيل الله تعالى وفي سبيل المستضعفين والمستذلّين من الرّجال والنّساء والولدان الذين بالغ كفّار مكّة في إيذائهم والنّيل منهم ، والذين يدعون الله تعالى من أعماقهم وقد حيل بينهم وبين الهجرة ، وحيل بينهم وبين أن يمارسوا بحرّيّةٍ شعائر الإسلام ، والذين يقولون بصدقٍ وإخلاص : يا ربّنا أخرجنا من قرية مكّة التي ظلمنا أهلها وساموا الخسف وأذلّونا وبالغوا في إيذائنا بقصد فتنتنا عن ديننا دين الإسلام الذي رضيته لنا ، واجعل لنا من لدنك يا ربّنا وليًّا يتولّى أمورنا ويخشاك فينا ومن عندك نصيراً يأخذ بأيدينا ويشدّ من أزرنا وينصرنا على عدوّك يا الله وعدوّنا .

عن ابن عبّاس : والمستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان هم أناسٌ مسلمون كانوا بمكّة لا يستطيعون أن يخرجوا منها ليهاجروا فعذرهم الله وفيهم قوله : ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظّالم أهلها فهي مكّة[2] وقال البخاريّ عن ابن عبّاس قال : كنت أنا وأمّي من المستضعفين[3].

وقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء المستضعفين فيسّر جلّ وعلا لبعضهم أسباب الخروج ثمّ فتحت مكّة المكرّمة سنة ثمانٍ من الهجرة .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

تقرّر الآية الكريمة الهدف الذي يقاتل من أجله كلٌّ من المؤمنين والكافرين . أمّا المؤمنون فإنّهم يقاتلون في سبيل الله وابتغاء مرضاته وامتثالاً لأمره جلّ وعلا ورفعاً من شأن دينه ودحراً لعدوّه جلّ وعلا وعدوّهم ، ومن ثمّ فالله سبحانه وتعالى هو وليّ هؤلاء المؤمنين . أمّا الكافرون فإنّهم يقاتلون في سبيل الطّاغوت ومن أجل الشّيطان الرّجيم وامتثالاً لأوامر

(١) تفسير الطّبريّ ٥/١٠٦ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٥/١٠٧ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٢٥ .

أولياء الشّيطان الرّجيم الذي ألقوا إليه مقاليدهم فساقهم إلى مهاوي الرّدى وشفير جهنّم ونار الحريق ، ومن ثمّ فالذين كفروا لا مولى لهم ولا ناصر لهم ، وهم في قتالهم أحرص النّاس على حياةٍ وعلى الغنائم ، أمّا الباعث لهم على القتال فهو طاعة الشّيطان الرّجيم الذي زيّن لهم سوء عملهم وقتال المؤمنين .

والآية الكريمة تأمر المؤمنين جند الله تعالى وأولياءه وأحبابه أن يقاتلوا أولياء الشّيطان وحزبه . وتقرّر الآية الكريمة أنّ كيد الشّيطان بالمؤمنين ضعيف واهٍ ، فهكذا شاءت إرادة الله تعالى . فعلى المؤمنين أن يتوكّلوا على الله تعالى ويستعينوا به جلّ وعلا ويستنصروه وهو وليّهم وناصرهم وهو نعم المولى ونعم النّصير جلّ وعلا .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ
كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا
قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

سبب النّزول :

قال الكلبيّ : نزلت هذه الآية في نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يلقون من المشركين أذىً كبيراً ويقولون : يا رسول الله ، ائذن لنا في قتال هؤلاء فيقول لهم : كفّوا أيديكم فإنّي لم أؤمر بقتالهم . فلمّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمرهم الله تعالى بقتال المشركين ، كرهه بعضهم وشقّ عليهم فأنزل الله تعالى هذه الآية[1] .

فلمّا كتب عليهم القتال : فلمّا فرض عليهم القتال[2] .

لولا أخّرتنا إلى أجلٍ قريب : هلّا أخّرتنا إلى أجلٍ قريب[3] هو الموت[4] يعني إلى أن يموتوا على فرشهم وفي منازلهم[5] .

---

(١) أسباب النّزول للنّيسابوري ص ١١١ وانظر تفسير الطّبريّ ١٠٨/٥ وتفسير ابن كثير ٥٢٥/١ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٥ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٥ .
(٤) تفسير ابن كثير ٥٢٦/١ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٥ .

ولا تظلمون فتيلاً : عن ابن عبّاس قوله فتيلاً قال : الذي في بطن النّواة[٦] وفي شقّها[٢] مفتولاً[٣] .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ بعد الهجرة وبعد فرض القتال قائلة : ألم تر يا محمّد إلى الفريق من أصحابك الذين حينما كانوا بمكة قبل الهجرة واستأذنوك في قتال المشركين قيل لهم كفّوا أيديكم عن القتال ، فلم نؤمر بذلك بل أمرنا بالصّبر ، وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة ، والمعروف أنّ الصّلاة فرضت جملةً وتفصيلاً قبل الهجرة ، وفرضت الزّكاة جملةً قبل الهجرة وتفصيلاً في السّنة الثّانية من الهجرة[٤] فلمّا كتب على المؤمنين القتال في سبيل الله تعالى بعد الهجرة وفي السّنة الثّانية من الهجرة[٥] لاثنتي عشرة ليلةً خلت من صفر[٦] إذا فريقٌ من أصحابك الذين استأذنوك في القتال قبل الهجرة يخشون النّاس ، ويخافون أعداء الله تعالى وعذابهم ، كخشية الله تعالى والخوف من عذابه جلّ وعلا أو أشدّ خشيةً وخوفاً ، وقالوا جزعاً من الموت ، وخوفاً من القتل ، وحبًّا للحياة الدّنيا وما فيها من نعيم زائل : يا ربّنا ، ويا من غمرتنا بنعمك التي ربّيتنا بها وآلائك التي غمرتنا بها لم كتبت علينا القتال عاجلاً والجهاد في سبيلك سريعاً وقبل أن ننال من نعيم الدّنيا حظّنا ومن متعها نصيبنا . لولا أخّرتنا إلى أجلٍ قريب ، وهلّا أمهلتنا إلى وقت موتنا على فرشنا وفي منازلنا فنقبل إليك ولكن على التّراخي بعد أن نكون قد أخذنا حظّنا من هذه الحياة الدّنيا وليس على الفور حينما نجاهد ونقاتل في سبيلك ونستشهد .

ويكون الجواب من ربّ العزّة على هذا الفريق مبيّناً هوان هذه الحياة الدّنيا ومتاعها القليل ونعيمها الزّائل ، وثواب المجاهدين الجزيل وجزاء المستشهدين العظيم . وهذا الجواب يكون في هيئة مخاطبة المصطفى ﷺ : قل يا محمّد لهذا الفريق إنّ متاع الدّنيا مهما كان كبيراً وكثيراً فإنّه بالقياس إلى نعيم الآخرة صغيرٌ وقليل في الجنّة التي عرضها السّماوات والأرض . إنّ الآخرة لمن سعى لها سعيها خيرٌ من الأولى ، وبخاصّةٍ في حقّ المتّقين . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تنصّ على التّقوى ، والمعروف أنّها تكوّن الوجه الآخر للإحسان ، بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، وكأنّ الآية الكريمة في حثّها على التّقوى لا تريد للمؤمنين أن يقنعوا ويعملوا من أجل مرتبةٍ أقلّ من مرتبة المتّقين .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨٢/٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ٥١٢/١ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٨٣/٥ .
(٤) انظر هنا مثلاً فقه السّنّة ٧٨/١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ .
(٥) فقه السّنّة ٢٩/٣ .
(٦) نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين ص ١١٢ .

وتنصّ الآية الكريمة على عدل الله تعالى وأنّ أحداً لن يظلم شيئاً ولا مثقال وزن الفتيل ، وهو الذي في شقّ النّواة ، والمعروف أنّه لا وزن له . إنّ أحداً لن يظلم شيئاً بحذف حسنة أو إضافة سيّئة .

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾

أينما تكونوا يدرككم الموت : حيثما تكونوا ينلكم الموت فتموتوا[١] .

ولو كنتم في بروج مشيّدة : ولو كنتم في حصون وقصورٍ[٢] حصينةٍ منيعةٍ عاليةٍ رفيعة[٣] .

وإن تصبهم حسنة : أي خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك . هذا معنى قول ابن عبّاس وأبي العالية والسّدّيّ[٤] وإن ينلهم رخاءٌ وظفر وفتح ويصيبوا غنيمة[٥] .

يقولوا هذه من عند الله : يعني من قبل الله ومن تقديره[٦] .

وإن تصبهم سيّئة : أي قحطٌ وجدبٌ ونقصٌ في الثّمار والزّروع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك كما يقوله أبو العالية والسّدّيّ[٧] وإن تنلهم شدّة من عيش وهزيمةٌ من عدو وجراح وألم[٨] .

يقولوا هذه من عندك : يقولوا هذه من عند محمّدٍ عليه السّلام أساء التّدبير وأساء النّظر ، ما أحسن التّدبير ولا النّظر[٩] ويقولوا هذه من قبلك وبسبب اتّباعنا لك واقتدائنا بدينك[١٠] .

قل كلٌّ من عند الله : عن ابن عبّاس : قل كلٌّ من عند الله أي الحسنة والسّيّئة أمّا

---

(١) تفسير الطّبريّ ٥/١٠٩ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٥/١٠٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٢٦ .
(٤) تفسير ابن كثير ١/٥٢٧ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٥/١١٠ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٥/١١٠ .
(٧) تفسير ابن كثير ١/٥٢٧ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٥/١١٠ .
(٩) تفسير الطّبريّ ٥/١١٠ .
(١٠) تفسير ابن كثير ١/٥٢٧ .

الحسنة فأنعم بها عليك وأمّا السّيّئة فابتلاك بها[1] .

فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً : فما شأن هؤلاء القوم لا يكادون يعلمون حقيقة ما تخبرهم به[2] والآية الكريمة في المنافقين[3] .

إنّما كان قول الفريق من المؤمنين في الآية الكريمة السّابقة : ﴿ ربّنا لم كتبت علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجلٍ قريب ﴾ فراراً من الموت وخوفاً منه أن يدركهم . وهذه الآية الكريمة تقرّر أنّ الموت سوف يدرك كلّ إنسان مهما تحاشاه وفرّ منه ولو كان في برج مشيّد وقصر محصّن وحصنٍ منيع . فلا معنى لتحاشي أسباب الموت وفي مقدّمتها الجهاد في سبيل الله تعالى ، لأنّ من لم يمت بالسّيف مات بغيره ومن لم يمت عَبْطَةً ، شابًّا صحيحاً معافىً ، يمت هَرَماً ، شيخاً ضعيفاً وشَيْبةً .

ونستطيع أن نفهم أنّ المؤمنين صادقي الإيمان من مهاجرين وأنصار قد فهموا حقًّا معنى الجزئيّة الكريمة : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروجٍ مشيّدة ﴾ بدليل ترجمتهم لها إلى عمل ، ممّا نجم عنه بفضل الله تعالى انسياح دولة لا إله إلّا الله محمّد رسول الله بقيادة المصطفى ﷺ انسياحاً عجيباً ، بحيث إنّها بعد أن كانت يوم هجرة المصطفى ﷺ بضعة كيلومترات مربّعة أصبحت قبيل وفاته عليه الصّلاة والسّلام تزيد على المليون ميل مربّع ، وأهمّ من هذا الانسياح العسكريّ تحوّل سكّان الجزيرة العربيّة من الإشراك مع الله تعالى غيره إلى التّوحيد الصّافي النّقيّ .

أمّا المنافقون ومن لفّ لفّهم فإنّ لهم وضعاً آخر غريباً وعجيباً وخاصًّا بهم وهو ما عنيت به الآية الكريمة بعد ذلك . إنّ المنافقين ينطبق في حقّهم قوله تعالى في سورة الحجّ[4] : ﴿ ومن النّاس من يعبد الله على حرفٍ فإن أصابه خيرٌ اطمأنّ به وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه خسر الدّنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ﴾ إنّ هؤلاء المنافقين إن أصابتهم حسنةٌ من خصبٍ وزرعٍ وولدٍ ورزقٍ واسع في وقت السّلم وظفرٍ وفتحٍ وغنيمة في وقت الحرب قالوا : هذه من عند الله تعالى . وإن أصابتهم سيّئةٌ من جدبٍ وقحطٍ ونقصٍ في الزّروع والضّروع والثّمار والولد في وقت السّلم ، وقتلٍ وجراحٍ وأسرٍ وهزيمةٍ في وقت الحرب قالوا : هذه من عندك يا محمّد وبسبب شؤمك واتّباعنا دينك وتغريرك بنا وسوء

---

(١) تفسير الطّبريّ ١١١/٥ وتفسير ابن كثير ٥٢٧/١ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١١١/٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٥٢٧/١ .

(٤) الآية ١١ .

تدبيرك . وإنّ موقف هؤلاء المنافقين ومن لفّ لفّهم من المكذّبين يذكّرنا بالعديد من المواقف المشابهة للكافرين والتي أشار إليها القرآن الكريم . جاء بشأن موسى عليه السّلام وآل فرعون قوله تعالى في سورة الأعراف[1] : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنين ونقصٍ من الثّمرات لعلّهم يذّكّرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه . ألا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ وجاء بشأن صالحٍ عليه السّلام وقومه قوله تعالى في سورة النّمل[2] : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أنِ اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون . قال يا قومِ لم تستعجلون بالسّيّئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلّكم ترحمون . قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك . قال طائركم عند الله بل أنتم قومٌ تفتنون ﴾ وجاء بشأن رسل الله تعالى الثّلاثة إلى القرية وأهلها المكذّبين قوله تعالى في سور يس[3] : ﴿ قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ .

وتبيّن الآية الكريمة حقيقة الحسنة والسّيّئة ، وسوء إدراك القوم لفهم ما يقال لهم وقصر نظرهم وضيق عطنهم : ﴿ قل كلٌّ من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ قل يا محمّد لهؤلاء إنّ كلاً من الحسنة والسّيّئة من عند الله تعالى ، ينعم بالحسنة ، ويبتلي بالسّيّئة ، فما بال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً وما شأن هؤلاء القوم لا يكادون يدركون معنى ما يقال لهم في أوضح عبارة وأنصع بيان ؟ إنّ الاستفهام هنا للإنكار والتّعجّب .

مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

ما أصابك أيّها الإنسان من حسنةٍ وخيرٍ وفلاحٍ فمن الله تعالى الذي تفضّل عليك به ووفّقك لصالح الأعمال التي أردت بها وجهه الكريم وقبلها منك . وحاذر أن يكون ذلك استدراجاً من الله تعالى لك فعليك أن تقلع عن ذنوبك أو تتوب إلى الله تعالى توبةً نصوحاً . وما أصابك أيّها الإنسان من سيّئةٍ وشرّ فمن نفسك وبسبب ما ارتكبت من

(١) الآيات ١٣٠ ، ١٣١ .
(٢) الآيات ٤٥ – ٤٧ .
(٣) الآية ١٨ ، ١٩ .

ذنب . وإذا كان ربّك قد عاملك بشأن الحسنة بفضله جلّ وعلا فإنّه عاملك بشأن السّيّئة بعدله . فكلّ ما يصيبك في حياتك بين الفضل والعدل لا رادّ لقضائه جلّ وعلا ولا معقّب لحكمه .

وقد أرسلناك أيّها الرّسول الكريم للنّاس رسولاً برسالة الإسلام كي تخرجهم بإذن ربّهم من ظلمات الشّرك والجهل إلى نور التّوحيد والعلم . وكفى بالله شهيداً عليك أيّها الرّسول الكريم يا من بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة وكان لأمّته النّاصح الأمين ، وشهيداً على من أرسلت إليهم ، من قَبِلَ منهم رسالتك فآمن بها وترجم إيمانه إلى عملٍ صالح فاستحقّ أن تصيبه الحسنة فضلاً من الله تعالى ، ومن لم يقبل رسالتك فكفر بها وصدّ عن سبيل الله تعالى فاستحقّ أن تصيبه السّيّئة عدلاً من بارئه جلّ وعلا .

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾

ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً : حافظاً لما يعملون محاسباً[1] .

أرسل ربّ العزّة محمّد بن عبد الله ﷺ للنّاس رسولاً وأكرمه بنعمة ختم النّبوّة وكفى بالله شهيداً على ذلك . وقد انقسم النّاس تجاه دعوة الخير هذه فريقين ، فريقاً أطاع الرّسول الكريم وفريقاً عصاه . والآية الكريمة تذكر الفريقين وتبيّن طبيعة كلٍّ منهما من الطّاعة والعصيان وما ينتظر كلاً من الفريقين ضمناً . إنّ من يطع الرّسول ﷺ فقد أطاع الله تعالى لأنّه رسوله جلّ وعلا ولا ينطق عن الهوى ، إن هو إلّا وحيٌ يوحى إليه لفظاً في هيئة القرآن الكريم ومعنىً في هيئة السّنّة النّبويّة المطهّرة . ويفهم ضمناً ثواب من أطاع الله تعالى وأطاع رسوله الكريم وترجم الطّاعة إلى عمل . وإنّ من لم يطع الرّسول الكريم بل عصاه فقد عصى الله تعالى . وقد عبّرت الآية الكريمة عن عدم الطّاعة بالتّولي ، أي تولية العاصي دبره لمن دعاه إلى الله تعالى . إنّ مجرّد الإعراض عمى بصيرةٍ وحماقةٌ وسخف ، فكيف بإدارة الظّهر للدّاعي إلى الله تعالى تعبيراً من المدعوّ عن عمى بصيرته وحمقه وسوء أدبه .

وإنّ الآية الكريمة في معرض التّسلية وتثبيت فؤاد المصطفى ﷺ تبيّن له عليه الصّلاة والسّلام أنّ الله تعالى لم يرسله إلى النّاس محاسباً لهم على ما يعملون إنّما أرسله جلّ وعلا بشيراً ونذيراً ، وعليه ﷺ البلاغ وحده وعلى الله تعالى الحساب .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٥/١١٢ .